

الطيب  
بِصَعْدِ الْبَيْه  
الْكَلِمِ  
الْعَمَلِ  
الصَّالِحِ يَرْفَعُهُ



## الجماهير... ومعرفة الهدم والبناء م. فيصل العش

القصة القرآني من منظور جديد (6)  
سر الإرادة الإنسانية  
د. عثمان مصباح

تأملات في حدث القرآن  
في شهر القرآن  
د. مصدق الجليدي

المثقف العربي والإسلام  
عندما ينسحب الفقيه (2-3)  
أ.د. احمد النيفر

الجزء من جنس العمل  
ابراهيم بالكيلاني

في السيرة الفلسفية ...  
د. عبدالرزاق بلعقروز

أوروبا صانعة التحول في العالم  
د. عز الدين عناية

## هدف المجلة

هدف مجلة الإصلاح بلورة فكر وسطي يتفاعل مع محيطه ويقترح حلولاً لمختلف مشاكله الفكرية والسياسية والاجتماعية. وتسعى المجلة أن تكون حاضنة لأفكار ورؤى تناضل من أجل بناء دولة فلسفتها خدمة المواطن، ومجتمع مبني على التعاون والتآزر والعيش المشترك في كنف الحرية والمساواة. هي منبر للتّحليل واقتراح البديل من دون تشنج إيديولوجي ولا تعصب لفئة دون أخرى. يحلم القائمون عليها مواصلة ما بدأه المصلحون، دون تقديس لهم أو اجترار لأفكارهم، منطلقين من الواقع الذي يعيشون فيه، متمسكين بهويّتهم العربية الإسلامية ومنفتحين على العصر وعلى كلّ فكرة أو مشروع يؤدي إلى الإصلاح.

## المشاركة هي تأييد المجلة

- \* النشر بالمجلة تطوعي وبدون مقابل و يتحمّل فيه الكاتب مسؤولية أفكاره ومواقفه.
- \* لإدارة المجلة كامل الصلاحيّة في نشر أو رفض المشاركات.
- \* لا تقبل المشاركات التي تدعو إلى العنف أو التمييز على أساس الجنس أو العرق أو الدين أو تتضمّن شتماً أو معلومات من دون ذكر المصدر.

## الاتصال بالمجلة

- \* توزع المجلة مجاناً عبر البريد الإلكتروني ومواقع التواصل الاجتماعي
- \* رئيس التحرير : فيصل العشي، faycalelleuch@gmail.com
- \* مراجعة لغوية : علي عبيد - فيصل الرباعي.
- \* ر.د.م.د : 2902 - 2382.
- \* البريد الإلكتروني للمجلة : alislah.mag@gmail.com
- \* موقع الواب : www.alislahmag.com

- \* صفحة الفيس بوك : https://www.facebook.com/Alislahmag





6	م. فيصل العث	الجماهير.... ومعركة الهدم والبناء	الأولى
11	د. سالم المساهلي	ترنيمات	ترنيمات
12	أ.د. احميده النيفر	خزانة الأرض	خزانة الأرض
16	د. عبدالرزاق بلعقروز	وبعد	وبعد
20	د. ناجي الحجلوي	المثقف العربي والإسلام، عندما ينسحب الفقيه 2-3	المثقف العربي والإسلام، عندما ينسحب الفقيه 2-3
26	إبراهيم بالكيلاني	نافذة على الفلسفة	نافذة على الفلسفة
28	د. عثمان مصباح	في السيرة الفلسفية ...	في السيرة الفلسفية ...
34	د. عز الدين عناية	بهدوء	بهدوء
40	د. مصدق الجليدي	الإعجاز القرآني: المفهوم والإشكالات	الإعجاز القرآني: المفهوم والإشكالات
42	رضوان مقديش	(الحلقة العاشرة: مآزق القول بالإعجاز البلاغي 2-2)	(الحلقة العاشرة: مآزق القول بالإعجاز البلاغي 2-2)
46	محمد أمين هبيري	في ظلال آية	في ظلال آية
51	جواد إحيوض	الجزء من جنس العمل	الجزء من جنس العمل
56	الهادي بريك	في الصميم	في الصميم
61	أ.د. فوزي أحمد عبدالسلام	القصص القرآني من منظور جديد (6) - سر الإرادة الإنسانيّة	القصص القرآني من منظور جديد (6) - سر الإرادة الإنسانيّة
65	عبدالله الرّحوي	تحت المجهر	تحت المجهر
66	التحرير	أوروبا صانعة التحول في العالم	أوروبا صانعة التحول في العالم
		فواصل	فواصل
		تأملات في حدث القرآن في شهر القرآن	تأملات في حدث القرآن في شهر القرآن
		همسة	همسة
		بين القرآن والسنة، محاولة منطقية لرسم المناطق والحدود	بين القرآن والسنة، محاولة منطقية لرسم المناطق والحدود
		حديث في السياسة	حديث في السياسة
		وريشة قرطاج، نحو إرساء وعي استراتيجي جديد	وريشة قرطاج، نحو إرساء وعي استراتيجي جديد
		نقاط على الحروف	نقاط على الحروف
		قراءة في تحديات التراث بين الإقصاء والتكامل:	قراءة في تحديات التراث بين الإقصاء والتكامل:
		موقف الجابري الفلسفي من أبي حامد الفزالي نموذجا.. 1-4	موقف الجابري الفلسفي من أبي حامد الفزالي نموذجا.. 1-4
		قبسات من الرسول	قبسات من الرسول
		الحلقة 12 : خلاصة مقتضبة لسيرته العامة	الحلقة 12 : خلاصة مقتضبة لسيرته العامة
		أهل الاختصاص	أهل الاختصاص
		تطور نظريات الحركة (6): إستقرار المدارات الثابتة مع الأرض	تطور نظريات الحركة (6): إستقرار المدارات الثابتة مع الأرض
		حديقة الشعراء	حديقة الشعراء
		ريان	ريان
		شخصيات	شخصيات
		المجاهد محمد الدغباي	المجاهد محمد الدغباي



## مسجد مسالك الجنان في السنغال - داكار



يقع مسجد «مسالك الجنان» في قلب العاصمة السنغالية «داكار»، ويعتبر أكبر مسجد في غرب إفريقيا، بلغت كلفة إنجازه 30 مليون يورو. تزيّنه قبة مذهّبة ومآذن ضخمة.

تمّ فتح المسجد للصلاة في 17 سبتمبر 2019م، واستغرق بناء المسجد 7 سنوات، وبني على مساحة 6 هكتارات، وتم اختيار اسم المسجد نسبة لعنوان كتاب أهم مؤلّفات الشيخ «أحمدو بمبا»، زعيم الطريقة «المريديّة» بالسنغال والتي تعدّ من اقوى الجماعات الدينيّة في السنغال وفي غرب إفريقيا.



قام بتصميم المسجد مهندسون مغاربة وشيّدته مختصّون في الزخرف والنقش وفق فنّ العمارة الإسلاميّة، ويتسع المسجد لـ 10 آلاف مصليّ في القسم الداخلي، و20 ألف في الفناء. وتستقبل قاعة الصلاة الرئيسيّة ما بين 7 و8 آلاف مصليّ. ويضمّ مكتبة إسلاميّة وقاعات للمحاضرات

بهذا العدد نختم عشر سنوات من مسيرة مجلة الإصلاح في خدمة الثقافة المحاربة للاستحمار والجهل والتخلف، ومحاولة إرساء دعائم فكر متمسك بهويته العربية الإسلامية، منفتح على العالم، متسامح مع المخالفين له. حاولنا خلال العشريّة المنقضية أن نلتمس من خلال نشر ما يصلنا من مساهمات مختلفة طريقا مغايرا للسائد من حيث سياسة التحرير، آمليين أن تكون المجلة محطة للنقاش وتلاقح الأفكار، فلم ننظر إلى صفة الكاتب أو انتمائه الفكري أو السياسي ولا إلى مستواه الأكاديمي ولم نضع شروطا للنشر ما عدا تلك التي تحترم حقوق الناس وتضمن صحة المضمون من حيث المعلومات. لهذا لا غرابة في أن يتضمّن نفس العدد من المجلة مقالا يدافع عن الفكر الصوفي مبرزا خصاله وآخر متمسكا بالمدرسة التقليدية الإسلامية لا يحيد عنها ولا ينزاح، وثالث غارق في العقلانية، ناقدا للفكر السلفي، مدافعا عن مدارس التجديد في الفكر الإسلامي. كما يمكن أن يتضمّن نفس العدد مقالا في الفكر وآخر في الأدب وثالث في العلوم المختلفة. الهدف من كلّ ذلك، هو فسح المجال لكل من يريد المساهمة في الإصلاح مهما اختلفت الزوايا وتنوّعت الاختصاصات.

ولأن مجال نظرنا واهتمامنا لم يكن يقتصر يوما على بلدنا تونس، بل شمل الأمة بأكملها، ولأن مشاغل المسلمين هي نفسها من المحيط إلى المحيط، ولأن الأفكار لا تعرف الحدود ولا الانتماءات الجغرافية المصطنعة، فقد سعينا أن تكون «الإصلاح» منبرا لكلّ الأشقاء من كلّ الأقطار، يدلون بدلوهم - كلّ حسب اختصاصه ومجال بحثه- في دراسة الواقع ونقده، واقتراح حلول لمشاغله المتنوعة. وبهذه المناسبة السعيدة يسرني وأسرّة تحرير المجلة أن نتقدّم باسمي عبارات الشكر والتقدير لكلّ الأساتذة والدكاترة والباحثين الذين ساهموا بالقليل أو بالكثير في تأييد المجلة والتعريف بها بدون مقابل.

ولأننا نبحت دائما على الأفضل فقد قمنا بإعداد استبيان حول المجلة ونشره على مواقع التواصل الاجتماعي قصد الحصول على رأي القراء والمتابعين للمجلة حول شكلها ومضمونها وطريقة نشرها. وبهذه المناسبة نرجو من الجميع الاشتراك في هذا العمل بالجواب على الاستبيان الذي يمكن تحميله عبر

الرابط التالي : <https://forms.gle/rgbepMfTAgB6eLZZ9>

نرجو من الله أن لا نكون قد أخطأنا الطريق، وأن نكون قريبين من الإصلاح بعيدين عن الإفساد.  
«إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله» صدق الله العظيم



«لا يعدو أن يكون تسخير روحانية الدين لبسط السلطان المادي حربا على الدين بقدر ما هو حرب على الإنسان، وحربا على الذات بقدر ما هو حرب على الآخر»

د. طه عبد الرحمان



م. فيصل العش  
«رئيس التحرير»  
faycalleuch@gmail.com



## الجماهير... ومعرفة الهدم والبناء



تعتبر الجماهير من أهم العناصر الرئيسيّة في أيّة عمليّة للإصلاح أو للتغيير بصفتها العنصر الذي يقع عليه فعل التّغيير/الإصلاح من ناحية، ومن ناحية أخرى بصفتها مشاركا أساسيا في صنع هذا التّغيير. وتعبّر الجماهير بتصرّفاتا وعلاقاتها فيما بينها بشكل تلقائي وعاطفي عن ثقافة المجتمع السائدة. ولهذا فإنّ دراسة واقعها ومعرفة خصائصها من شأنه أن يعين على التماس الطّريق المناسب للتّغيير.

(1)

وسواء كانت عربيّة أو غيرها، وسواء كانت في عصرنا الحاضر أو في زمن غير زماننا، فإنّ للجماهير ميزات عامّة مشتركة، كما لديها خصائص ذاتيّة تتغيّر حسب الزّمان والمكان.

تحدّث المؤرخ الفرنسي وعالم الاجتماع الشهير «غوستاف لوبون»<sup>(1)</sup> بإطناب في كتابه «سيكولوجيّة الجماهير» عن الميزات المشتركة للجماهير، من أبرزها أنّ الجماهير «غير ميّالة كثيرا للتأمّل وغير مؤهّلة للمحاكمة العقليّة، ولكنها مؤهّلة جدّا للانخراط في الممارسة والعمل»<sup>(2)</sup> ولهذا فليدها استعداد كبير

(1) غوستاف لوبون (7 ماي 1841 - 13 ديسمبر 1931) هو مؤرخ وعالم اجتماع وطبيب فرنسي، عمل في أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا، كتب في علم الآثار وعلم الانثروبولوجيا، وعني بالحضارة الشرقية. واهتمّ بدراسة المجتمعات وعلم نفس الجماهير من كتاباته المشهورة «سر تقدم الأمم» و«روح الاجتماع» و«سيكولوجيا الجماهير» الذي ألفه سنة 1895 أي بعد ما يقارب المائة عام على قيام الثورة الفرنسية وما أعقبها من انتكاسات، وما تلاها أيضًا من استرداد لها وتصديرها أو تأثر الدول الأوروبية بها في القرن التاسع عشر، وعلى ضوء ذلك كتب لوبون كتابه ذائع الصيت الذي قيل إن النازيين اتخذوه منهجًا لهم في ترويض جماهيرهم.

(2) غوستاف لوبون، سيكولوجيّة الجماهير، ترجمة هاشم صالح - دار الساقي - ط1 - ص. 45

للتلقي وسرعة في التأثر وسذاجة في تصديق أي شيء. «إنّ الجمهور يشرد باستمرار على حدود اللاشعور ويتلقى بطيبة خاطر كلّ الاقتراحات والأوامر كما أنّه مليء بالمشاعر الخاصّة بالكائنات غير القادرة على الاحتكام للعقل ومحروم من كلّ روح نقديّة وبالتالي فهو لا يستطيع إلا أن يبدي سذاجة وسرعة تصديق منقطة النظير...»<sup>(3)</sup> وهو ما يساعد على قبول كثير من الأفكار ولو كانت غير منطقيّة، ولعلّ هذا ما يفسّر حالة انتشار الإشاعات والأكاذيب في مثل هذه الأوساط.

ومن خصائص الجماهير النّفسيّة سرعة انفعالها ونزقها؛ «فلا شيء متعمّد أو مدروس لدى الجماهير، فهي

تستطيع أن تعيش كلّ أنواع العواطف، وتنتقل من النّقيض إلى النّقيض بسرعة البرق وذلك تحت تأثير المحرّض السائد في اللّحظة التي تعيشها»<sup>(4)</sup>. وظاهرة التّحريض تنتقل بالعدوى في أوساط الجمهور، وتستخدم فيها شعارات يجد الجمهور نفسه مندفعاً لها تلقائياً لأنّها تلامس رغباته<sup>(5)</sup>.

ومن صفات الجماهير أيضاً التّعصب والاستبداد؛ لذلك فإنّها عادة ما تكون أشدّ تعصباً للأفكار والعقائد وأشدّ تطرفاً ضدّها كذلك، فإذا ما أضيف لذلك التّعصب شعور الجمهور بقوّته، فإنّ استبداده برأيه يكون بحجم تعصّبه<sup>(6)</sup>.

ومن الخصائص العامّة الأخرى انطماس شخصيّة الفرد وانخراطه في سيل الجماهير، والذي يترتب عنه تخليه عن عقله الواعي ومنطقيّته حتّى يتماهى معها. «إنّ الجمهور هو أدنى مرتبة من الانسان المفرد فيما يخصّ النّاحية العقليّة والفكريّة، ولكن من وجهة العواطف والأعمال التي تثيرها هذه العواطف فإنّه يمكن لهذا الجمهور أن يسير نحو الأفضل أو نحو الأسوأ وكلّ شيء يعتمد على الطّريقة التي يتمّ تحريضه أو تحريكه بها»<sup>(7)</sup>.

ولأنّ الجماهير محكومة باللاوعي فإنّ من صفاتها المحافظة، والتي تتحكّم فيها العوامل الموروثة، وحتّى عند ثورانها وانتفاضاتها، فإنّها سرعان ما تملّ من الفوضى والانفلات اللذين تخلفهما تلك الموجات الاحتجاجيّة أو الثورات، وتميل مرّة أخرى بغريزتها إلى العبوديّة أو إلى من يجمعها بحجج كثيرة كالاستقرار وحماية البلد وغيرها.

» من أبرز السيمات المشتركة للجماهير حسب «غوستاف لوبون» أنّ الجماهير غير ميّالة كثيراً للتأمل، وغير مؤهّلة للمحاكمة العقليّة، ولكنها مؤهّلة جدّاً للانخراط في الممارسة والعمل، ولهذا فليدها استعداد كبير للتلقّي وسرعة في التأثر وسذاجة في تصديق أي شيء



(3) نفس المصدر - ص. 67

(4) نفس المصدر - ص. 64

(5) إنّنا بذلك يمكن أن نفهم تحولات قطاع كبير من عامة الناس بعد ثورات الربيع العربي مع تيار أو آخر ثمّ ضدّه، بل وفي أحيان ضدّ الثورة ذاتها التي خرجوا من أجلها وذلك تحت عوائد التّحريض اليومي والممنهج.

(6) نلاحظ ذلك في تصرّف الجماهير في الاجتماعات العامّة أو في المظاهرات العامّة.

(7) غوستاف لوبون، نفس المصدر - ص. 61

هذه أهم الميزات العامّة المشتركة للجماهير، وهي  
ميزات تنطبق على الجماهير العربيّة في الماضي وفي  
الحاضر. ولكن ما هي الخصائص الذاتيّة الحالية التي  
تميّز الجماهير العربيّة عن غيرها؟ وكيف تطبّعت بها؟

(2)

لعلّ المتأمل في واقعنا العربي يلاحظ بيسر أنّ الجماهير  
العربيّة الاسلاميّة قد أضاعت البوصلة بشكل كامل،  
وهي تعيش لحظة إحباط لم يسبق أن عاشتها من قبل،  
ووضعا مزريا ميزته التخلف والانحطاط.

وما تعانیه هذه الجماهير ليس وليد اليوم، فأغلبه  
اختمر خلال حقبة عديدة متطاولة منذ أن فقدت حضارة

الأمّة بريقتها وهيمنت عليها الحضارات الأجنبية. غير أنّ ما حدث لها خلال فترة ما بعد الاستعمار المباشر  
إلى يومنا الحاضر أدخلها في متاهات لا نهاية لها وأفقدتها تماما قيمتها وخصائصها فأضاعت البوصلة.

حين خرج الاستعمار من بلادنا أخذت ما يسمّى بالحكومات الوطنيّة تعدّ الخطط التّنمويّة المختلفة  
بهدف إعمار البلاد وسدّ فجوة التخلف القائمة بيننا وبين الغرب. ولأنّ القائمين عليها كانوا يعتقدون  
بوعي أو بدونه أنّ تحقيق النهضة لا يتمّ إلاّ عبر بوابة الغرب، سعوا إلى استنساخ تجربته وتدمير كلّ  
البنى الذاتيّة المعارضة لذلك، مستخدمين أساليب قسريّة وقهرية في إشاعة أشكال التّحديث في الجسم  
العربي، مهملين العناية بالإنسان وأهميّة توعية الجماهير قبل فرض البرامج والمخطّطات بالقوّة.  
فكانت النتيجة خلق واقع من الحيرة والتردد والتمزّق واضطراب في شخصيّة الإنسان العربي، فأصبحت  
الجماهير تعيش ازدواجيّة مدمّرة بين ما تحمله من تقاليد التّأخر والتخلف وبين مظاهر التّحديث  
القسري التي فُرِضت عليها بالقوّة.

إنّه من الحيف الإدعاء بأنّ نخب «الدولة الوطنيّة» لم تفعل شيئاً تجاه الوطن، فقد سعت إلى القضاء  
على العديد من أشكال التخلف بطريقتها ولكنها كانت في نفس الوقت ترعى -بوعي أو بدون وعي-  
المنابع والمصادر التي تتوالد منها قيم التّأخر والتخلف. لقد انبهرت هذه النخب بنتائج تطوّر الانسان  
الغربي فسعت لتقليده من دون أن تأخذ بالأسباب الحقيقيّة لتطوّره وتقدّمه، وأسرعت بالقضاء على  
القوى التّقليديّة دون الإمساك الفعلي بالقوى الجديدة بشكل سليم وفاعل، فكانت نتائج ذلك وخيمة.

لقد استطاعت هذه النخب في فترات متعدّدة أن تجلب الجماهير إلى صفّها وتجمعها حولها لتنفيذ  
مخطّطاتها، لكن سرعان ما كان يخيب ظنّ هذه الجماهير نتيجة عدم تحقيق نتائج لفائدتها، فتقلّبت  
على عقبيها ليسكنها اليأس وتمزّقت الخيبة<sup>(8)</sup>.

لقد خلقت نخب «الدولة الوطنيّة» واقعا مليئا بحالات متناقضة (تحديث قشوري واحتضان منابع

(8) انظر إلى خيبة العرب من التجربة القوميّة وخبية التونسيين من التجارب العديدة للبورقبيية أهمّها فشل تجربة التعاقد.



التخلف والانحطاط والتأخر) تتعايش تحت سقف واحد بقلق حادّ وتوترٍ مضمّر في بعض الأحيان وصريح في أحيان أخرى ينذر بتفكك اجتماعي خطير. وتحوّل الإنسان العربي بفعل ذلك إلى ما يشبه الغراب الذي قلّد بصفة مشوّهة مشية الحمامة فأضاع مشيته، فصار يتعثّر كلّما حاول المشي .. لكن الفرق بينهما أنّ الغراب أراد بإرادته أن يغيّر مشيته، أمّا الإنسان العربي فقد فرض عليه التّغيير فرضاً. لقد أجبرت الجماهير العربيّة على ترك جزء لا بأس به من تقاليدّها ممّا جعلها تفقد توازنها القديم - وإن كان متخلّفاً- وفي المقابل لم تتمكّن

عندما تضيع الجماهير البوصلة تتحوّل إلى قنبلة موقوتة، وتفترخ ما نراه اليوم من تطرّف وعنف ودمار، وتحوّل إلى كتل بشرية يحركها من يتحكّم في أدوات ومؤثرات تجيئها ومن يتوجّه إلى عاطفتها وليس إلى عقلها

من إيجاد توازن بديل نتيجة فرض مناهج الغرب عليها، فأصبحت تعيش وضعا ممرّقا زادته الخيارات الاقتصادية الفاشلة تأزماً، فأضاعته بوصلتها وأصبحت تعيش أزمة أخلاقية وقيمية وثقافية خانقة وأصبحنا نعاين في نفسيتها وسلوكها ما لا يمكن أن يستقيم معه دين ولا دنيا. ومن ذلك:

- عدم الاكتراث بالشأن العام وانحسار اهتمامات الجماهير في الضّروقات، فهي في حالة من الجري الدائم للحصول على ما يسدّ الرّمق، تكافح في سبيل البقاء ليس أكثر. وهذا ما يفسّر التلقّي الفاتر لكلّ ما يحدث حولها، حيث لا شيء يهم لأنّ عندها ما هو أهم، ولأنّها تشعر بأنّ اهتمامها بالأحداث غير ذي جدوى.

- الشعور بفقدان الكرامة وضياع الحقوق وسحق الذات واضمحلالها.
- غياب روح المبادرة وسلوك الاقتحام إلى جانب الخوف الشّديد من التّغيير.
- هيمنة القهر والتسلّط والعنف على العلاقات الاجتماعيّة بدل التّفاهم والتّبادل المتكافئ، فغدا التّناحر والتّقاتل واغتصاب الحقوق ورفض الواجب الجماعي سمة واضحة لمكونات المجتمع.
- هذا التيه والتّمزق الذي أصبح ميزة الفضاء الاجتماعي العربي جعل الشّعوب عاجزة عن التماس الطّريق الصّحيح نحو النهوض والتّطور والخروج من عنق زجاجة الفقر والتّخلف، وفي نفس الوقت قاصرة عن استيعاب ملايين الوافدين الجدد ممّن تدفع بهم الأرحام في كلّ سنة سواء على المستوى التّربوي أو الاجتماعي، نتج عنه نوع من عدم التّواصل التّقافي بين الأجيال.

(3)

عندما تضيع الجماهير البوصلة تتحوّل إلى قنبلة موقوتة، وتفترخ ما نراه اليوم من تطرّف وعنف ودمار، وتحوّل إلى كتل بشرية يحركها من يتحكّم في أدوات ومؤثرات تجيئها ومن يتوجّه إلى عاطفتها وليس إلى عقلها. ففي الحالة الجماهيرية العادية تنخفض الطّاقة على التّفكير، وتنعدم الرّغبة في استيعاب الحجج العقلية، وتطغى الخصائص التي تصدر عن اللاوعي أهمّها سرعة الانفعال والتأثر والتّعصب، فما بالك بجماهير قد أضاعت بوصلتها وتحكّمت فيها قوى الرّدة والعمالة والاستبداد التي فقّحت

نقاط ضعفها وقوتها وهي بصدد استغلالها لترويضها من جديد ودفن الحلم العربي في التنمية والنهضة. والجماهير - حسب علم النفس الاجتماعي - ليست كالفرد يبحث عن الحقيقة بالأدلة والبراهين، بل هي كتلة تبحث عن البساطة لتسير حسبها نحو الهدف الذي تتوق إليه، الذي هو في الحقيقة غير صادر عن الجماهير وإنما نتاج ذكاء شخص أو مجموعة عرفت كيف تحرك تلك الجماهير، فزرعت ذلك الهدف في عقولها. يقول لوبون: «لكي نقنع الجماهير ينبغي أولاً أن نفهم العواطف الجياشة في صدورهم، وأن نتظاهر بأننا نشاطرهم إيّاها، ثم نحاول بعدئذ أن نغيّرها عن طريق إثارة بعض الصور

» من يؤمن بقدرات الشعوب على التغيير عليه أن يربح معركة كسب الجماهير إلى صفه وتحريكها نحو الأفضل بعيداً عن الهدم والنكوص إلى الوراء ولا يكون له ذلك إلا إذا كان قريباً منها، مستوعباً خصائصها ومتقناً لفن استخدام الكلمات والشعارات التي تفهمها وتؤثر فيها.



المحرّضة بواسطة الربط غير المنطقي أو البدائي بين الأشياء»<sup>(9)</sup>.

والجمهور لا يمكن إقناعه بأية إيديولوجيا، أو فكرة، بالاعتماد على الوسائل العقلية. ومن الأفضل مخاطبته بلغة الصور والإيحاء والشعارات. يقول لوبون: «ولما كانت الجماهير عاجزة عن التفكير إلا بواسطة الصور، فإنه لا يمكن جذبها والتأثير عليها إلا عن طريق الصور. ووحدها هذه الأخيرة ترعبها أو تجذبها وتصبح باعثاً للعمل والممارسة»<sup>(10)</sup>.

ولا يعني هذا أن الحراك الجماهيري حتى وإن تحكّم فيه اللاوعي هو حراك سلبي نحو الفوضى، فتمّة ثنائية متناقضة تتحكّم في لاوعي الجماهير هي الهدم والبناء. فإذا تحركت الجماهير فإنها تتحرك إما للهدم ( الثورة / التمرد / المواجهة مع الأمن / حرق وتدمير المؤسسات ..) أو للبناء (حملات تضامنية فيما بينها / مظاهرات التأييد ....) حسب نوعية ومصدر التحريض. يقول لوبون في هذا الصدد: «إن الجماهير التي تحرض بذكاء تصبح قادرة على البطولة والتفاني من أجل قضية نبيلة»<sup>(11)</sup>. وعندما نجح في غرس فكرة ما في روح الجماهير فإنها تكتسب قوة لا تقاوم وينتج عنها سلسلة من الانعكاسات والنتائج الايجابية التي يمكن البناء عليها.

فمن يؤمن بقدرات الشعوب على التغيير عليه أن يربح معركة كسب الجماهير إلى صفه وتحريكها نحو الأفضل بعيداً عن الهدم والنكوص إلى الوراء ولا يكون له ذلك إلا إذا كان قريباً منها، مستوعباً خصائصها ومتقناً لفن استخدام الكلمات والشعارات التي تفهمها وتؤثر فيها، وأن يعتمد على قوانين الذاكرة والخيال والشعارات الحماسية بدل قوانين العقل والبرهان، فهذه موجهة للأفراد وإقناع الجماهير غير إقناع الأفراد ولكلّ مقام مقال.

(9) غوستان لوبون، نفس المصدر - ص. 124

(10) غوستان لوبون، نفس المصدر - ص. 76

(11) غوستان لوبون، نفس المصدر - ص. 75





## حرائر الأرض



- يا قارئ الكون في الميخيل والكتب \*\*\* اقرأ كتاب حياة الناس واقترِب  
يبدو الوجود لذي وهم مدى صور \*\*\* وزحمة تنتشي باللغط والصخب  
يقارع اليأس بالشكوى يعاقرها \*\*\* ويصرف العمر بين الرغب والرهب  
وينسج الوعد أشجانا وأبخرة \*\*\* من التمني، ولا يسعى إلى الطلب  
وما الحياة سوى عزم وملحمة \*\*\* تغني عن الوصف والتنويه والخطب  
هذي ملامحها تحد ومسافتها \*\*\* وترسم الخطو في حزم وفي نصب  
يا أيها الخامل المهزوم ملتمسًا \*\*\* لمقعد العجز، ألوانا من السبب  
تحاور الصمت مشدودًا إلى حلم \*\*\* لا يستقيم، مع الأضغاث والتعب  
قم للكفاح خجولا، إنها امرأة \*\*\* تأتيك بالدرس، فافهم آية الخطب  
لم تنتظر أحدا، خطت مسيرتها \*\*\* كريمة النفس والوجدان والنسب  
حرائر الأرض لا يخفضن أجنحتن \*\*\* زغم الوجيعت والأثقال والسغب  
ها أنها تحضن المعنى وفلذتها \*\*\* وتقطع الدرب مشيا دونما سغب  
فأقرأ كتاب نضال لم يمد يدا \*\*\* للأمنيات ولم يركن إلى العتب



أ.د. احميده النيفر  
«مفكر وجامعي تونسي»  
ennaifer.hmida18@gmail.com

وبعد...



## المثقف العربي والإسلام

### عندما ينسحب الفقيه 3/2



كيف نشب الخلاف بين الفقيه والمثقف العربي، ثم كيف تدهورت العلاقة بينهما حدّ التناكر والعداء؟ لماذا استفحل الشقاق بينهما؟ وهل كان من الممكن تفاديه أو التّحكم فيه؟ أيجوز أن نقارن صدام هذين الرّمزين في العصر الحديث بالتّنافس الدّامي القديم بين أهل الفقه والشّريعة وبين أهل التّصوّف والطّريقة؟

لماذا غدا عموم المثقّفين العرب بعد إزاحة الفقهاء من صدارة الفعل الاجتماعي والتّشريعي في تبعيّة لسلطان الحكم بعد أن كانوا روّادا حاملين لمشروع فكري عام قابل لتحريك المجتمع؟

إذا أردنا تقديم إجابات ضافية وعلمية عن هذه الأسئلة، فإنّنا نحتاج إلى عمل دراسي شامل ومعّمق لا يسمح به المقام. مثل هذا الغرض يمكن أن تحقّقه أيضا ندوة علميّة يساهم فيها عدد من الباحثين العرب والأجانب يتداولون فيها بالدّرس حالات عربيّة متنوّعة في خصوصيّاتها قصد النّظر في تحوّل المؤسّسات العلميّة والاجتماعيّة ورصد تاريخ الأفكار وتطوّرها في العالم العربي الحديث.

لذلك سنقصر عملنا هذه المرّة وفي مقال موالٍ، على أنموذج واحد ضمن المجال العربي هو الأنموذج التّونسي نسعى من خلاله إلى إضاءة جانب من إشكاليّة المثقّف العربي في علاقته بالإسلام منجزاً حضاريّاً معيشاً وبالفقيه الذي ظلّ لقرون صاحب السّلطة المرجعيّة دينيّا وتشريعيّاً في المجتمعات المسلمة.

لم تشذ تونس عن سائر البلدان العربيّة والإسلاميّة في ظهور فئة المثقّفين الحاملين لمعارف جديدة لا صلة لها بالمرجعيّة الدّينيّة، والمطالبين بأحداث قطيعة عمليّة مع الماضي، والعاملين من أجل تصوّر جديد للمستقبل. لعلّ تونس كانت، في هذا المضمار، أسبق من كثير من الأقطار العربيّة الأخرى باعتبار مبادراتها أو اضطراراتها لإجراء حركة إصلاحات تحديّية في مختلف المجالات. من ثمّ توفّرت الشّروط الموضوعيّة لانبثاق المثقّف من رحم تحديث المجتمع.

» لم تشذ تونس عن سائر البلدان العربيّة والإسلاميّة في ظهور فئة المثقّفين الحاملين لمعارف جديدة لا صلة لها بالمرجعيّة الدّينيّة، والمطالبين بأحداث قطيعة عمليّة مع الماضي، والعاملين من أجل تصوّر جديد للمستقبل.

من أبرز أحداث الطّور الأوّل لتلك الحركة سجّل المؤرخ التّونسي أحمد ابن أبي الضياف في كتابه- المرجع: «إتحاف أهل الزّمان» جملة من القرارات كانت إيذانا بقيام خيارات أساسيّة تهّم الدّين والدّولة والأداء السّياسي والتّوجّه الاجتماعي فضلا عن السّياسة الخارجيّة والوطنية. من هذه الاجراءات يمكن أن نذكر:

- \* إبطال مهمّة «المزوار» أو المحتسب القائم بالأمر بالمعروف والنّاهي عن المنكر سنة 1836م،
- \* جعل مرتبات قارة لفقهاء المالكيّة يتقاضونها مع الجند النّظامي وإنشاء مدرسة حربيّة خاصّة لتكوين الأطارات العليا للدّولة، تحت إشراف مزدوج أوروبي تونسي سنة 1840م،
- \* إحداث نظام تعليمي يضبط به سير الدّروس الدّينيّة في جامع الزيتونة 1842، عتق الرّقيق السّود سنة 1846م.

لكن أهمّ تلك الأحداث وأكثرها تعبيرا عن الولوج بصورة أكيدة في سياق تحديّي تحقّق سنة 1274 هـ الموافق لسنة 1857م. في ذلك العام أصدر الملك وثيقة «عهد الأمان» وهو أوّل دستور ينظّم الحياة السّياسيّة والقانونيّة والاجتماعيّة والماليّة لسكّان القطر وللأجانب المقيمين به. كان رد فعل الفقهاء عند تلاوة نصّ الوثيقة لأوّل وهلة هو الاستحسان إلى حدّ تصريح شيخ الإسلام بأنّه يمكنه أن يخطب يوم الجمعة بشرح الوثيقة ذلك أنّ قاعدة الأمان والعدل «هي ملاك أمر الدّين والدّنيا». لكنّ المجلس الشّرعي اتخذ بعد ذلك موقفا مغايرا، فاعتذر جميع أعضائه عن المشاركة في أعمال لجنة إقرار التّراتيب وشرح الفصول المسطرّة في الدّستور. كان عذرهم الذي تقدموا به إلى الملك كتابةً هو «أنّ منصبهم الشّرعي لا تناسبه مباشرة الأمور السّياسيّة»!

يعتبر ابن أبي الضياف - وهو من خريجي المؤسسة الزيتونية ومن أشد المتحمسين للإصلاح والتحديث، هذا الانسحاب غير المبرر إخلالا بواجب العلماء في القيام بالنصيحة لأئمة المسلمين وعامتهم وتضييعا لفرصة تاريخية كان يمكن للفقهاء لو شاركوا فيها أن يفيدوها وأن يستفادوا منها وأن يكون ذلك باعثا لنفاق «سوق العلم وتقدم أهله». ثم يعلق على كل ذلك فيما يشبه اليأس من حسن تقدير الفقهاء أن الله «سيسألهم عن ذلك يوم تُبلى السرائر».

» مع انطلاق مؤسسات تعليمية منافسة لجامع الزيتونة منها الوطني بمشاركة شيوخ من الزيتونة ومنها الأجنبي الوافد، اشتد التنافس إلى أن أصبح غير متوازن. عندها أضحى المثقف متملكا لوعي ذاتي بالاتجاهات العامة في حضارته وفي مسيرة العالم من حوله بما جعله ألحن بحجته من منافسه.



ذلك كان الحدث الفارق في التاريخ الحديث بتونس

بين المؤسسة الدينية وممثليها من الفقهاء وبين فئة المثقفين الصاعدة.

توالت بعد ذلك أحداث أخرى رجحت بعضها ما ذهب إليه المؤرخ-المثقف من تهاون الفقهاء بواجبهم في «تيسير الشريعة الصالحة لكل زمان... وقبول ارتكاب أخف الضررين عند العجز عن السلامة منهما». هذا بينما بينت مواقف أخرى، من أبرزها اضطراب في العاصمة بعد توقف المجلس الشرعي عن العمل لمطالبة الملك بتقييد الدولة بمجلس للشورى في صيف 1879، أن قسما من الفقهاء على وعي بما يتطلبه الوضع بالبلاد من إصلاحات سياسية ومؤسسية عشية قيام الحماية الفرنسية. كان لسان حال بعضهم يقول، وهو المدرك أن الأمر آيل إلى انقلاب كبير، «لا رأي لمن لا يطاع» بينما كان آخرون يرددون «لقد سبق السيف العذل».

ذلك كان منطلق الخلاف الذي سيتواصل متدرجا مع الأيام، ليرز المثقف منافسا عنيدا للفقيه رغم كونه حصل معارفه من جامع الزيتونة، ذات المؤسسة التعليمية الوطنية القائمة على تكوين النخب الرائدة والإطارات العليا للدولة. مع انطلاق مؤسسات تعليمية منافسة منها الوطني بمشاركة شيوخ من الزيتونة ومنها الأجنبي الوافد، اشتد التنافس إلى أن أصبح غير متوازن. عندها أضحى المثقف متملكا لوعي ذاتي بالاتجاهات العامة في حضارته وفي مسيرة العالم من حوله بما جعله ألحن بحجته من منافسه. أما الفقيه فقد ارتد في الغالب إلى مواقع دفاعية تعوزه الرؤية النقدية للسياق التاريخي الإسلامي الخاص فضلا عن تشخيص سليم للسياق الحضاري العام. يضاف إلى ذلك عنصر آخر زاد الطين بلة، أظهره بجلاء سياق التحديث، هو أن الفقهاء أصبحوا ثلاثة: فقيه ولاء لمؤسسة السلطة يرى السمع والطاعة أفضل ضامن لالتئام الأمة، وفقيه

أدراء يتجنب المواجهة أو النقد مع اعتقاد ضرورة الإصلاح، وفقهه انتماء إلى الجماعة والأمة، مدرك للفجوة القائمة بين الواقع الموضوعي للمجتمع وبين البنية الفقهية والفكرية المعتمدة لدى عموم أقرانه.

مع قيام نظام الحماية الفرنسية تواصل العدّ التنازلي المؤذّن بتراجع واضح لمكانة الفقيه وبرز المثقف المقترح مرجعية ثقافية بديلة تحقق الوقوف على العديد من ثغرات المجتمع.

ما سيقع اعتماده من وسائل التشجيع والإدانة بل والتكفير لمقاومة المنافس الصاعد القائل بضرورة تجاوز مرجعية النخب المتدينة كان أكبر دليل على

فشل دعوى التقليد. هذا ما تؤكده أكثر من حالة في الأنموذج التونسي لعل أشهرها حالة المثقف عبد العزيز الثعالبي الذي حوكم سنة 1904 بتهمة الكفر ونشر الضلالات وحالة الطاهر الحداد (تـ 1935) الذي وقعت مقاومته بشدة لما أظهره من رفض لوثوقية الفقيه الداعم للتقاليد الفاسدة وللدعوة لإصلاح أوضاع الأسرة والمرأة خاصة.

من هذا الطور الأول الذي سبق بناء الدولة القطرية الحديثة في تونس يمكن أن نستنتج أن المثقف انتهى لموقع أصبح فيه رائدا للتورة على التراث، معتبرا أن الثقافة السائدة ثقافة تقليدية متخلفة، وأن المجتمع يتطلب تغييرات جذرية شاملة بعضها يتم بتغيير نظام الحياة، وبعضها الآخر يستدعي تغييرا لنظام الفكر.

» من الطور الأول الذي سبق بناء الدولة القطرية الحديثة في تونس يمكن أن نستنتج أن المثقف انتهى لموقع أصبح فيه رائدا للتورة على التراث، معتبرا أن الثقافة السائدة ثقافة تقليدية متخلفة، وأن المجتمع يتطلب تغييرات جذرية شاملة بعضها يتم بتغيير نظام الحياة، وبعضها الآخر يستدعي تغييرا لنظام الفكر





د عبد الرزاق بلعقروز  
«كاتب وأكاديمي جزائري»  
abderrezakbelagrouz@yahoo.fr



## في السيرة الفلسفية ...



تواردت كلمة السيرة الفلسفية في الموروث الفلسفي العربي الإسلامي، تحت أسماء منها «السيرة الفاضلة» و«السيرة العادلة» و«سيرة الفلاسفة»، و«سيرة المتوحد» و«السيرة الأمامية». وقد أشار أبو بكر محمد بن زكريا الرازي، في نصين له هما: «الطب الروحاني» و«كتاب السيرة الفلسفية»، إلى سمات السيرة الفلسفية أو الصورة النموذجية التي يجب أن يكون عليها الفيلسوف. يقول الرازي «إن السيرة التي سار بها وعليها أفاضل الفلاسفة هي بالقول المجمل معاملة الناس بالعدل والأخذ عليهم من بعد ذلك بالفضل واستشعار العفة والرّحمة والنّصح للكل و الاجتهاد في نفع الكل، إلا من بدأ منهم بالجور والظلم وسعي في إفساد السياسة»<sup>(1)</sup>، ويقول كذلك «أقرب عبيد الله جلّ وعزّ إليه أعلمهم وأعدلهم وأرحمهم وأرأفهم. وكلّ هذا الكلام مراد قول الفلاسفة جميعاً «إن الفلسفة هي التّشبه بالله عزّ وجلّ بقدر ما في طاقة الإنسان» وهذه جملة السيرة الفلسفية»<sup>(2)</sup>

كما ظهرت كلمة السيرة أيضا في نصوص أبي الحسن العامري في حديثه عن الملابس لصناعة الحكمة والمؤثر لها على غيرها من أنواع المشتبهات؛ فإنّ همّه أي طالب الحكمة يتّجه إلى «العناية بتطهير نفسه، واستصفاء أخلاقه، واستغزار علومه، واستكمال آدابه. فيرى إكرام نفسه متعلّقا بتخليتها عن العجب والنّزق، وتبعيدها عن الجهالة والخور، ورياضتها على الانقياد للحقّ، وتشريفها بالهداية للخلق، علما منه بأنّ

(1) الطب الروحاني، ص 91

(2) كتاب السيرة الفلسفية، الرازي، محمد بن زكريا، جمعها وصحّحها، بول كراوس، دمشق: بدايات للطباعة والنّشر و التوزيع، 2005.



الإنسان الكامل هو الذي استحكمت دربته على هذه السيرة، واستولى مرانه على هذه السجية. فإنَّ الله جلَّ جلاله عدل ولا يحب إلا العدل، وإنَّه ظاهر لا يحب إلا الطاهر»<sup>(3)</sup> كما نجد عند «ابن باجة» في تدبير المتوحد إشارات إلى «سيرة المتوحد» والوصف السلوكي الذي يليق به منها قوله: «والمتوحد الظاهر من أمره أنه لا يجب عليه أن لا يصحب الجسماني ولا من غايته الروحانية المشوبة بجسميته، بل إنَّما يجب عليه أن يصحب أهل العلوم ... يكون المتوحد واجبا عليه في بعض السير أن يعتزل عن النَّاس جملة ما أمكنه، فلا يلبسهم إلا في الأمور الضرورية أو بقدر الضرورة أو يهاجر إلى السير التي فيها العلوم إن كانت موجودة... السيرة الأمامية هي الأمر الطبيعي

تنبني مواصفات الجانب النموذجي في الفعل الفلسفي، على أمور أربعة «أحدها، موافقة ظاهر الفيلسوف لباطنه؛ والثاني، موافقة فعله لقوله؛ والثالث، لزوم هذه الموافقة المزدوجة حتى يستحق أن يؤخذ عنه باعتباره معلما؛ والرابع، التغلغل في هذه الموافقة المزدوجة حتى يستحق أن يقتدى به باعتباره حكيما

للنفس، وهي واحدة، تضاد سائر السير، وهي كثيرة، والكثرة غير طبيعية للنفس...»<sup>(4)</sup>. وعلى الجملة؛ تحيل السيرة الفلسفية إلى سؤال الفعل، لكن ليس الفعل كموضوع كلي، إنَّما أفعال الفيلسوف الذي يجتهد بعقله ويجاهد بإرادته طالبا إحقاق قيم فكرية أو عملية يبصر من منظوره أنَّها لسان الحقيقة وترجمان الفضيلة، لذا فإنَّ منهج التحليل؛ سيجد وهو يقرأ الفعل شكلين اثنين يكونانه، الأوَّل، عبارتي كلي مشترك يعكس القيم العالمية بمعزل عن اختلاف مجالات التداول، والثاني، إشاري يختلف باختلاف مجالات التداول، والكلمة الواصفة للأوَّل هي النموذجية، وللثاني هي، الشذوية. وبناء على هذه القسمة الثنائية يمكن الترقى في البيان قليلا، صارفين القول إلى ذكر مواصفات الجانب النموذجي في الفعل الفلسفي، الذي مبناه على أمور أربعة «أحدها، موافقة ظاهر الفيلسوف لباطنه؛ والثاني، موافقة فعله لقوله؛ والثالث، لزوم هذه الموافقة المزدوجة حتى يستحق أن يؤخذ عنه باعتباره معلما؛ والرابع، التغلغل في هذه الموافقة المزدوجة حتى يستحق أن يقتدى به باعتباره حكيما»<sup>(5)</sup>. فثمة إذن فضائل أربع يرتاض الفيلسوف عليها حتى تكون صادرة عنه من غير فكر ولا تكلف: «الصدق» و«العمل» و«العلم» و«الحكمة». وهنا أخذ بيد العمل الفلسفي، إلى التحقُّق الأخلاقي في السلوك، درءا لسائد التصور عن الفلاسفة، من أنهم أهل العقل المجرد، ومطالب السعادة في منظورهم تنحصر في تعقل الموجودات وتجريدها في مفاهيم نظرية وعامة. ويسمي أبو نصر الفارابي هذه الصنف من التفلسف المجرد بـ «الفلسفة البتراء، والفيلسوف الزور والفيلسوف البهرج والفيلسوف الباطل»<sup>(6)</sup>. والوصف الجامع لهاته الأصناف كما يرسمها الفارابي؛ ابتغاؤهم تعلم العلوم النظرية من غير تعويد النفس على الأفعال الفاضلة.

(3) الأمد على الأبد.

(4) ابن باجة، تدبير المتوحد،

(5) عبد الرحمن، طه، من الإنسان الأبتري إلى الإنسان الكوثر، مصدر سابق، ص 84.

(6) أبي نصر الفارابي، تحصيل السعادة، تحقيق أحمد فريد المزيدي بيروت: دار الكتب العلمية، 2004) ص 121.

بينما الصورة الأخلق تُحاجُّ على أن «الفيلسوف الكامل على الإطلاق هو الذي حصلت له الفضائل النظرية أولاً، ثم العملية ببصيرة يقينية. ثم تكون له قدرة على إيجادها جميعاً في الأمم والمدن بالوجه والمقدار الممكنين في كل واحد منهم»<sup>(7)</sup>. واللافت في هذا المقطع، ليس مسألة تحصيل العلوم نظرياً، ولا حتى المواطأة نحوها، إنما الأخذ بها إلى الاستعمال في الفضاء العمومي، أو إيجادها هناك، وبهذا يكون وضع الفلسفة ليس للنفع الشخصي أو الفائدة الجزئية، بل يُقصد بها أبداً المصلحة الكلية، ومعلوم أن ما يُعْمُ الموجودات جدواها؛ يكون في أمس الحاجة إليه أكثر، مما يكون مقصور نفعه على شخص واحد.

»  
قد يأتي الفيلسوف أحيانا  
أفعالا تخرج عن القواعد المقررة في  
مجاله التداولي، مما يدعو إلى  
التمييز بين نوعين من الشذوية  
الفلسفية «الشذوية الإيجابية  
وهي التي تحيي أو ترسخ قيم  
الصدق والعمل والعلم والحكمة...  
وهناك الشذوية السلبية، وهي  
التي تميت هذه القيم أو تضر بها  
في هذا المجال.



إلا أن هذه الصورة النموجية للفيلسوف لا تحجب

عنا صورة أخرى مقابلة، هي الشذوية كمكون إشاري، فالفيلسوف أحيانا قد يأتي أفعالا تخرج عن القواعد المقررة في مجاله التداولي، مما يدعو إلى التمييز بين نوعين من الشذوية الفلسفية «الشذوية الإيجابية وهي التي تحيي أو ترسخ قيم الصدق والعمل والعلم والحكمة... وهناك الشذوية السلبية، وهي التي تميت هذه القيم أو تضر بها في هذا المجال»<sup>(8)</sup>. فالأولى خادمة للنموجية الفلسفية التي مبنها الفضائل الأربع، والثانية هادمة لهذه الفضائل. وتقنية السيرة تأخذ بهذه المقولات لكي تعلل بها أفعال الفيلسوف، مستندة إلى أدوات علمية عديدة، فهما لبواعث السلوك وتفسيرا لها، وهنا تظهر لنا أفعال فلسفية موافقة للنموجية، وأخرى معاندة لها، وأمثلة ذلك من الأسئلة حول سير الفلاسفة ما هو معنى الجنون الذي اشتهر به «نيتشه» وهل من صلة خفية به مع فلسفته؟ لماذا أنهى «جيل دولوز» حياته بالانتحار؟ ولماذا قتل «لوي ألتوسير» زوجته خنقا حتى الموت؟ كيف لفيلسوف مثل «مارتن هيدجر» أن يتخلى عن مبدأ الإلتزام الفلسفي وينخرط في سياسة الأنظمة الشمولية؟ لماذا ناصر «جون بول سارتر» الثورة الجزائرية رغم أن وطنه فرنسا هي المحتل؟ وفي المقابل: لماذا لا نجد فقيها أو صوفياً أو متكلماً انتحر في تاريخ الثقافة الإسلامية؟

إن تقنية السيرة، ليست بعيدة عن تساؤلات العقل المعاصر؛ بل هي وثيقة الصلة به؛ ف«تحت عنوان فلسفة الفعل، يطرح المحدثون الأسئلة الكبرى في الفعل: سؤال النقد في الفعل، الفعل والسلوك، السببية في الفعل، سيكولوجية الإرادة، كيف أن مصير الذات بيدها، نقد الفعل الإرادي، التصور البنيوي للفعل، الفعل والحدث، السؤال الأنطولوجي الكياني «ما هو الفعل»<sup>(9)</sup> وهذه الأسئلة تعدّ أدوات سائدة في فهم وتعليل الفعل الفلسفي بخاصة كما يتعين في سلوك الفيلسوف أو سيرة الفلاسفة.

(7) المرجع السابق، ص 118.

(8) من الإنسان الأبتري إلى الإنسان الكوثر، سابق، ص 85.

(9) Vincent Descombes, L'action, Notion de philosophie, sous la direction de Denis Kambouchner, Folio essais, Paris p 104 -174



## وأد الطّفولة في أكرانيا كما وُِدَّتْ من قبل في فلسطين وسوريا واليمن وإفغانستان





د. ناجي الحجاوي  
«أستاذ مساعد بالمعهد العالي  
للحضارة الإسلامية بجامعة الزيتونة»  
hajlaoui.neji@gmail.com

بهدوء



## الإعجاز القرآني: المفهوم والإشكالات (الحلقة العاشرة: مازق القول بالإعجاز البلاغي 2-2)



اللافت للانتباه في حصر الإعجاز القرآني في حدود البيان يجعل التفكير الديني في مضيق يتمثل في أنّ هذا الإعجاز متعلق، بطريقة مباشرة، بأصحاب اللسان العربي دون غيرهم. وهو أمر يتعارض رأساً مع عالميّة الرسالة التي نزلت على محمد وخاتمتها. وقد بدت هاتان السّمتان في صريح ما نطق به الخطاب القرآني

ولعلّ الذي فات التفكير الديني التقليدي، هو البحث عن مظاهر أخرى للإعجاز تتعلق بالقيم كالحريّة ومنزلة الإنسان في الكون وقدرته على الخلق والابتكار<sup>(1)</sup>. وعموماً فإنّ التراكيب النحويّة ظلّت خادمة للتفسير بحثاً عن مظاهر الإعجاز البيانيّ إنّ في المستوى المعجمي وإن في المستوى النحوي، وإن في المستوى البلاغي، حيث يتمّ تقليب اللفظ بحسب تعدّد وظائفه ودلالاته، وقد تدخلت البلاغة، بوصفها معرفة لغويّة، بقوة، بحثاً عن جمال الخطاب لتكشف عن السّياق تجاوزاً للمشكلات التي يطرحها ظاهر بعض الآيات من أجل النّفاذ إلى طبقات الدلالة الخفيّة في الخطاب بأسره. وخذ إليك كيفيّة فهم السّؤال الذي بدا من الله إلى عيسى الوارد في الآية: «وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي

(1) V. Talbi Mohamed, Ma religion c'est la liberté: l'islam et les défis de la contemporanéité: Comment entrer dans la contemporanéité sans lamentations ni gémissements ni larmes, édition nirvana, Paris, 2011, deuxième partie : La liberté religieuse : droit de l'homme ou vocation de l'homme?

وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ<sup>(2)</sup>. قالوا هذا باب تفهيم وليس استفهاما لأن الاستفهام ينبع من غير عالم يطلب العلم بالشيء<sup>(3)</sup>.

إنّ هذا المثال، وغيره من الأمثلة، يدلّ على فصاحة العرب وإسآكهم بناصية لسانهم الحاوي لكثير من الطآقات التّعبريّة. ولقد قامت ثنائيّة الحقيقة والمجاز بأدوار مهمّة في دفع درجة الفصاحة إلى مستويات عميقة<sup>(4)</sup>. ولكنّ المفسّرين لم يوفّقوا تمام التّوفيق في جعل مقولة النّظم، بوصفها سنام الإعجاز، مفتاحا كفيلا بتفجير عوالم الدّالة الكامنة في النّص القرآني، وإنّما وقفوا عند اكتشافها والإشارة إليها واستثمارها بطريقة محتشمة، فضلّت مقولة نظريّة تنتظر التّفصيل والاستخدام والتّطوير.

لم يوفّق المفسّرون تمام التّوفيق في جعل مقولة النّظم، بوصفها سنام الإعجاز، مفتاحا كفيلا بتفجير عوالم الدّالة الكامنة في النّص القرآني، وإنّما وقفوا عند اكتشافها والإشارة إليها واستثمارها بطريقة محتشمة، فضلّت مقولة نظريّة تنتظر التّفصيل والاستخدام والتّطوير.

إنّ النّظر إلى النّص القرآنيّ من مناظير لسانية تفضي بالدارس إلى اعتباره خطابا ذا خصوصيّة في تشكيله وبنائه للمعنى. ولعلّ في هذا الإطار، يندرج ما ذهب إليه محمّد أركون من أنّ: «القرآن يتجلّى لنا كخطاب خاصّ له مادّيته وبنيته التي يمكن لباحث الألسنيّات أن يكتشف فيها أسلوبا خاصّا في تشكيل المعنى وإنتاجه. وما ينبغي أن يشغلنا هنا هو معرفة كيفيّة تشكّل هذه الآليّة المنتجة للمعنى في القرآن وفي اللّغة العربيّة، وكيفيّة اشتغالها وانغراسها في وعي الملايين لكي تنتج فيما بعد الفكر الإسلاميّ»<sup>(5)</sup>.

إنّ النّاطر في الإعجاز القرآنيّ وما يتولّد عنه من مسائل منهجيّة ومضمونيّة، يتّضح له أنّ المؤلّف لهذا النّصّ ليس كلّ المؤلّفين. فأهل اللّغة وأهل التّفسير يعاملون الله معاملة خاصّة تميّزه عن بقيّة المؤلّفين من بني البشر، فهو لا يكابد صعوبات الأسلوب ولا مشاقّ العبارة اختيارا وصياغة<sup>(6)</sup>.

ولكنّ السّؤال المهمّ الذي يطرح بناء على هذه المعاملة يتمثّل في: هل الله في حاجة إلى هذا التّمييز المبالغ فيه؟ وهل طلبه أصلا من عباده خاصّة وقد صرّح أنّه الغنيّ. أم أنّ التّبجيل الحقيقي لكلام الله يتجلّى في سبر أغواره والامتثال لقيمه. ثمّ إنّ الله قد أنزل الوحي لصالح الإنسان في قوله: «مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى»<sup>(7)</sup>.

وإذا كان الإبداع البشريّ يطلب معزولا عن مؤلّفه لأنّ النّصّ يعدّ ملكا لقارئه ولا تضره ضروب التّأويل،

(2) سورة المائدة 5، الآية 116.

(3) أبو عبيدة، مجاز القرآن، ج1، ص184.

(4) يمكن العودة إلى الرّماني، التّفسير، سورة آل عمران 3، الآية 113، ص63.

(5) محمّد أركون، تاريخيّة الفكر العربي الإسلامي، تعريب هاشم صالح، بيروت، ط1، 1986، ص184.

(6) انظر محمّد الهادي الجطلأوي، قضايا اللّغة في كتب التّفسير، ص219.

(7) سورة طه 20، الآية 2.

وإن شطّ، أمّا النصّ القرآني ككلّ النصوص الدينيّة، فهو محتوٍ على مقصد صاحبه الذي يظلّ مبتغى كلّ مفسّر وكلّ قارئ شأنه في هذا الأمر شأن النصوص القانونية ذات المرجعيّة التي إذا لم يتمّ الإمساك بها إمساكاً رشيداً، ويحكم تأويلها، فإنّ ضروب القراءة ستصبح تطويعا وإسقاطا وتعمية. ومع ذلك فقد عوّل القرآن على فعل القارئ في قوله: «أقرأ»<sup>(8)</sup> و«أفلا يتدبّرون»<sup>(9)</sup> و«لعلّهم يتفكّرون»<sup>(10)</sup>، لأنّ مقصد الله قد يظلّ بعيداً وحسب المرء أن يقف على مقاصد من إنتاجه تنسجم مع مقتضيات النصّ بأكمله.

حصر التّأويل في النّصوص الدينيّة، إذ التّأويل كشف للغامض الوارد في النّصوص والوصول بالظاهر إلى إفادة معنى بعيد، مع قرينة دالة. وهذه النّقلة بالمعنى، عملية محفوفة بالجريان على حسب ما في الذات لا على ماتقتضيه النّصوص

وفي هذا المستوى من التّمييز بين النّصوص الأدبيّة والنّصوص الدينيّة، يتّضح الفارق بين التّفسير والتّأويل. فإذا أرجع البعض التّفسير متعلّقاً بالنّصوص غير الدينيّة، فإنّهم حصروا التّأويل في النّصوص الدينيّة<sup>(11)</sup>، إذ التّأويل كشف للغامض الوارد في النّصوص والوصول بالظاهر إلى إفادة معنى بعيد، مع قرينة دالة. وهذه النّقلة بالمعنى، عملية محفوفة بالجريان على حسب ما في الذات لا على ماتقتضيه النّصوص.

وبالإضافة إلى ذلك، يتمتّع النصّ الديني بمرونة واتّساع يفسّران جنوح بعض الفقهاء إلى أن يفتوا في القضية الواحدة بأكثر من رأي بمجرد اختلاف المكان وإن كان ذلك في زمن واحد. وهو ما يدفع إلى التّساؤل عن أسباب ذلك: هل الأمر يعود إلى مرونة في النصّ، فحسب، أم إلى غايات أخرى خارجة عن النصّ ذاته كإرضاء السّلطة السّائدة أم إلى أمر آخر؟<sup>(12)</sup> والواضح أنّ تدخل السّلطة، وتحكّم قواعد المذهب، حينما تحجّرت، كلّها عوامل قد وجّهت الفعل التّفسيري لتطبع المعاني النّابعة من القيل القرآني بألوان مذهبيّة وسلطويّة. وهو ما ضيّق الآفاق الواسعة الواردة في اللّغة القرآنيّة. فالآية الواحدة تفيد الحرّيّة والاختيار بالنسبة إلى المعتزليّ، وتفيد التقيّد والجبر بالنسبة إلى السنّيّ. ومن اليسير على الناظر في الاختلاف في القراءات أن يلحظ أثر المذهب في تنوعها.

(8) سورة العلق، 96، الآية 1.

(9) سورة النساء، 4، الآية 81، وسورة محمد، 47، الآية 24.

(10) سورة النحل، 16، الآية 46، وسورة الأعراف، 7، الآية 176، وسورة الحشر، 59، الآية 21.

(11) انظر ابن عطية، مقدّمتان في علوم القرآن وهما مقدّمة كتاب المباني ومقدّمة ابن عطية، نشر آرثر جفري، تصحيح وتقويم عبدالله إسماعيل الصّاوي، القاهرة، نشر مكتبة الخانجي، ط2، 1972، ص172.

(12) ليس خافياً على ذي نظر فعل السّياسة في توجيه الثّقافة الدينيّة في الموروث الإسلامي وسمع إلى ما يقوله أبو جعفر معلّقاً على الحديث التّالي المعروف بحديث الثّقلين: عن سعد بن عبدالله القمي، بإسناده عن جابر الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام، قال: «دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: «أيّها النّاس إنّي تاركٌ فيكم الثّقلين، ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا: كتاب الله وعترتي، والكعبة البيت الحرام» ثمّ قال أبو جعفر عليه السلام: أمّا الكتاب فحرّفوا، وأمّا الكعبة فهدموا، وأمّا العترة فقتلوا، وكلّ ودائع الله قد نبذوا ومنّها قد تبرّؤوا». وذكره السيّد هاشم البحراني في كتاب «البرهان في تفسير القرآن»، تحقيق لجنة من العلماء والمحقّقين الإخصائيين، ج1، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط2، 2006، ص24.



يوجد عامل يدفع المسلمين، إلى التّشبّث بإعجاز القرآن، ويكمن في التّمييز بين الكلام والقول. فإذا كان العهدان القديم والجديد رواية عن الرّسولين عيسى وموسى وسيرتهما، باعتبارهما معبرين عن المعاني الإلهية بما تكلم به، فإنّ النّص القرآني قول إلهي بمعنى أنّ مصدره إلهي، وهو يعبر عن كونه من الله معنى وصياغة



ولعلّ الذي زاد المفسّرين، ولاسيّما اللّغويين منهم، تشبّثًا بظاهرة الإعجاز إنّما هو قداسة النّص. فالنّصوص المقدّسة، لدى المؤمنين بها، تتميز بالأصالة والتّفرد والأحاديّة. وعند المسلمين، يوجد عامل آخر يدفعهم إلى التّشبّث بإعجاز كتابهم، وهو يكمن في التّمييز بين الكلام والقول. فإذا كان العهدان القديم والجديد رواية عن الرّسولين عيسى وموسى وسيرتهما، باعتبارهما معبرين عن المعاني الإلهية بما تكلم به، فإنّ النّص القرآني قول إلهي بمعنى أنّ مصدره إلهي، وهو يعبر عن كونه من الله معنى وصياغة<sup>(13)</sup>.

ولقد مرّرت القداسة إلى مرسوم الخطّ حتّى بات وقفيا لا يجوز المساس به، وهو ما دعا بالبعض إلى الحديث عن الإعجاز العددي المعتمد على عدد الأحرف المرسومة بالشّكل الذي كُتبت عليه في بدء الكتابة والتّدوين. ومن أصحاب هذا الرّأي نذكر، على سبيل المثال، عدنان الرّفاعي الذي يقول: «نعجب كيف غفلنا، نحن المسلمين، أربعة عشر قرنا عن كون المفردة القرآنيّة ذات المعنى والماهية التي يتّصف بها ما تصفه وتسمّيه هذه المفردة، وكيف غفلنا عن كون المفردات القرآنيّة اللّغة الفطريّة التي علّمها الله تعالى لآدم في السّماء، وكيف غفلنا عن كون الحرف القرآني اللّبنة الأولى للمعنى والأبجدية الأولى للوجود ذاته»<sup>(14)</sup>. ولا غرو في أن يصل عدنان الرّفاعي، نتيجة هذه الرّؤية، إلى أنّ سورة نوح تتكوّن من أحرف مرسومة بعدد عمر هذا الرّسول المشار إليه في القرآن، وهو ألف سنة إلّا خمسين عاما. في غفلة عن تغيّر الوحدة الزّمنيّة الظّاهرة بين سنة وعام صلب الآية التي تُشير إلى هذا الموضوع. ثمّ إنّ هذه المدّة لا تمثّل عمر نوح، وإنّما هي الفترة التي قضّاها في دعوة قومه إلى التّوحيد، فضلا عن تغيّر وحدة القياس الزّمني من حضارة إلى أخرى.

لقد نما الوعي بظاهرة الإعجاز لدى أوائل المفسّرين وترسّب لدى المسلمين في أرضيّة ثقافيّة تفصل بين اللفظ والمعنى. وتعتبر الأوّل جسما والثّاني روحا. والحال أنّ التّفكير اللّساني أضحى يعتبرهما وجهين لأمر واحد. وعليه فإنّه كلّما قامت علامة إلّا ونهضت بها دلالة. ثمّ إنّ الإعجاز في أصل معناه اللّغوي هو انعدام القدرة على الإنجاز وفقدان الاستطاعة على الفعل، ومن ثمّ تكرّس في الوعي الديني أنّ كلام الله مفارق ومقدّس. والكلام البشري نسبيّ، لا حول له في الإحاطة بمعانيه ومقاصده. وبالنّظر إلى بعض

(13) يقول عبد المجيد الشّرفي في هذا المجال: «من المفيد الانتباه إلى المكانة الفريدة المتميّزة للنّص التّأسيسي، إذ لا مثيل لها بنفس الدرجة في الديانات الأخرى حتّى النّبويّة منها أو الكتابيّة». عبد المجيد الشّرفي، في قراءة التّراث الديني: الإتيقان في علوم القرآن أنموذجا، مقال ضمن كتاب جماعيّ بعنوان في قراءة النّص الديني، سلسلة موافقات، الدّار التّونسيّة للنّشر، تونس، ط1، 1989، ص ص30، 11.

(14) عدنان الرّفاعي، المعجزة الكبرى: معجزة إحدى الكبر، دار الخير للطّباعة، بيروت، لبنان، ط3 مزيدة ومنقحة، 2009، المقدّمة، ص14.



لا يروم الإعجاز القرآني إلحاق العجز بالإنسان، وإنما هو على العكس من ذلك، يُمثل طاقة من أجل استفزاز العقل وحثه على استكناه المزيد من حقائق هذه المعرفة اللامتناهية. والدليل على ذلك الأمر الإلهي المتكرر بضرورة التدبّر وإعمال النظر والتفكير في الآيات العديدة والمتنوعة



المفسرين من أمثال الطبري الذي يصدر شرحه للآيات بقوله «عنى الله بقوله»، فإنّ الدّارس لا يجد مناصا من التّساؤل عن كينيّة إحاطة الكلام البشري بإعجاز الكلام الإلهي. وكيف يُصبح الخطاب المُدّس حاويا للخطاب المقدّس. ومن جهة أخرى يلاحظ، أنّ الكسل الذي اعترى الثّقافة العربيّة الإسلاميّة قد عمّق الهوّة بين إعجاز الكلام الإلهي وعجز العقل المُزدوج: عجز عن فهم الخطاب القرآني من جهة، وعجز عن إنتاج أدوات معرفة جديدة من جهة أخرى. ولقد بدا هذا العجز في الاستسلام لما قاله الأوائل في القرآن والانصراف عن تجاوزه. وقد كان بإمكان هذا العقل أن يُبدع مداخل جديدة لمباشرة النصّ القرآني تفسيراً وتأويلاً. والنتيجة التي آل إليها القرآن،

هي أن صار كتاباً يرمز إلى التبرّك، به تتجمل المكتبات وتتزيّن. ولاغرو، في الوصول إلى هذه النتيجة، طالما أنّ مقولة الإعجاز قد أفضت إلى الاعتقاد بأنّ الحقيقة الدّينيّة قد اكتملت وحُصرت في المقول البلاغي الذي تضمّن فائضاً من القوّة القوليّة النّابعة من الإله الخالق المتكلم وأنّ هذه الحقيقة قد استوفت غايتها وكفايتها في إفحام الخصوم وتعجيزهم. ولقد حقّق الدّارسون الأوائل لظاهرة الإعجاز نصيباً مهماً من الحقيقة العليقة بمسألة الإعجاز للإحاطة به ولاسيما في مستوى النّظم، إلا أنّ النّظم ظلّ مقولة نظريّة مع عبد القاهر الجرجاني، ولم نعثر لها على أثر فعّال في مستوى الفعل التّفسيري بعده، إذ ظلّ تفسير القرآن مجزأ ومذرراً وخطياً يتّبع تسلسل الآيات حسب ورودها في المصحف دون التفات إلى ترتيلها ودون انتباه إلى ظاهرة التّأليف بين أجزاء الموضوع الواحد المتناثرة ثني السّور العديدة. وهو ما أدّى بالمفسرين إلى السّقوط في التّكرار والإعادة وعدم الإمساك بخيوط الموضوع الواحد.

لقد غفل الأصوليون والمفسرون عن حقيقة مفادها، أنّ إعجاز المصحف يكمن أيضاً في ما جاء به من أرضيّة معرفيّة جديدة تحدّد منزلة الإنسان في هذا الكون وترسم له علاقة حرّة مع ربّه وتكشف له عن معالم الرّوابط مع الذات والآخرين، بالرّغم من انتباه البعض، كالخطّابي، إلى أنّ معاني القرآن لا يخفى على ذي لبّ أنّها هي التي تشهد لها العقول بالتقدّم في أبوابها، والترقي إلى أعلى درجات الفضل من نعوتها وصفاتها<sup>(15)</sup>. كما أنّهم غفلوا عن أنّ هذا الإعجاز لا يروم إلحاق العجز بالإنسان، وإنما هو على العكس من ذلك، يُمثل طاقة من أجل استفزاز العقل وحثه على استكناه المزيد من حقائق هذه المعرفة اللامتناهية. والدليل على ذلك الأمر الإلهي المتكرر بضرورة التدبّر وإعمال النظر والتفكير في الآيات العديدة والمتنوعة. أمّا وقد عدل العقل المسلم عن هذا التدبّر واكتفى بما ضبطه الأوائل من صنوف الإعجاز، فقد استحال الفعل إلى انفعال والإعجاز إلى عجز.



(15) الخطّابي، بيان إعجاز القرآن، م س، ص 27.





25

**العمل الاجتماعي في الإسلام وتطبيقاته  
في الحضارة الإسلامية في السودان**  
«إبراهيم والعيز»

26

**التدين الإسلامي  
قواعده وألوياته آفاته**  
«الجهادي بريك»



27

**أصول الفقه في ضوء علم المقاصد  
(الطاهر بن عاشور أنهودجا)**  
«د. جميل حمداهوي»





إبراهيم الكيلاني  
«باحث في المجال التربوي - الترويج»  
belkilani@gmail.com



## الجزاء من جنس العمل



يقول الحقّ تبارك وتعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(1)</sup>

يقول ابن عاشور: «وَقَدْ شَمِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ بِمَوْقِعِهَا الْإِعْتِرَاضِيَّ أَسْوَلاً الْإِرْشَادِ إِلَى مَا فِي الْإِنْتِصَارِ مِنَ الظَّالِمِ وَمَا فِي الْعَفْوِ عَنْهُ مِنْ صَلَاحِ الْأُمَّةِ، فَفِي تَحْوِيلِ حَقِّ انْتِصَارِ الْمَظْلُومِ مِنْ ظَالِمِهِ رَدْعٌ لِلظَّالِمِينَ عَنِ الْإِقْدَامِ عَلَى الظُّلْمِ حَوْفًا مِنْ أَنْ يَأْخُذَ الْمَظْلُومُ بِحَقِّهِ، فَاْلْمُعْتَدِي يَحْسَبُ لِذَلِكَ حِسَابَهُ حِينَ أَلْهَمَ بِالْعُدْوَانِ»<sup>(2)</sup>.

وقد أشار ابن عاشور إلى معنى دقيق في حالة كان الظلم بين أفراد الأمة والوطن الواحد: «وفي التَّزْغِيْبِ فِي عَفْوِ الْمَظْلُومِ عَنْ ظَالِمِهِ حِفْظُ أَصْرَةِ الْأُخُوَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ بَيْنَ الْمَظْلُومِ وَظَالِمِهِ كَيْلًا تَنْتَلِمَ فِي أَحَادِ جُزْئِيَّاتِهَا بَلْ تَزْدَادَ بِالْعَفْوِ مَتَانَةً»<sup>(3)</sup>.

وذكر ابن عاشور في هذه الآية مسألة: تحليل المظلوم ظالمه من مظلمته، وأشار إلى ما ذكره ابن العربي في كتاب أحكام القرآن من أقوال ثلاثة فيها، وذكر في الوجه الثالث «أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا غَلَبَ عَلَى حَقِّكَ

(1) سورة الشورى - الآية 40.

(2) محمد الطاهر بن العاشور تفسير «التحرير والتنوير»، سورة الشورى، <https://tafsir.app/ibn-aashoor/42/40>

(3) محمد الطاهر بن العاشور تفسير «التحرير والتنوير»، سورة الشورى، المصدر نفسه.

فَمِنَ الرَّفْقِ بِهِ أَنْ تُحَلَّهٗ، وَإِنْ كَانَ ظَالِمًا فَمِنَ الْحَقِّ أَنْ لَا تَتْرُكُهُ لِيَلَّا يَغْتَرَّ الظَّلْمَةُ وَيَسْتَرْسِلُوا فِي أفعالِهِمُ القَبِيحَةِ»<sup>(4)</sup>. وهذا القول أورده ابن العربي في الآية 42 من السّورة نفسها.

ويشير الفخر الرّازي إلى أنّ «هذه الآية أصلٌ كبيرٌ في علم الفقه، فإنّ مُقتضاها أنّ تُقابلَ كُلَّ جِنَايَةٍ بِمِثْلِهَا وَذَلِكَ لِأَنَّ الإهدارَ يُوجبُ فَتْحَ بابِ الشَّرِّ والعُدوانِ، لِأَنَّ فِي طَبَعِ كُلِّ أَحَدٍ الظُّلْمَ والبَغْيَ والعُدوانَ، فَإِذَا لَمْ يُزَجَّرْ عَنْهُ أَقْدَمَ عَلَيْهِ وَلَمْ يَتْرُكْهُ، وَأَمَّا الزِّيَادَةُ عَلَى قَدْرِ الذَّنْبِ فَهُوَ ظُلْمٌ، والشَّرُّ مُنْزَعٌ عَنْهُ، فَلَمْ يَبْقَ إِلَّا أَنْ يُقَابَلَ بِالمِثْلِ»<sup>(5)</sup>.

فالعدل هو ميزان الحياة، و«لا سبيل للعمارة إلا بالعدل»<sup>(6)</sup> كما يقول ابن خلدون و«أنّ الظلم مخرب للعمران، وأنّ عائدة الخراب في العمران على الدولة بالفساد والانتقاص»<sup>(7)</sup>. لذلك كان صنف الظالمين من الأصناف التي لا يحبّها الله سبحانه وتعالى ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾، رغم ذلك كما قال الفخر الرّازي، فقد ندب إلى

العفو عنهم وفق ما ذكره من إشارات «فالمؤمنُ الذي هو حبيبُ الله بسببِ إيمانه أولى أن يعفو...»<sup>(8)</sup>. فالعفو خلق حميد ومطلوب بين أبناء الأمة الواحدة والوطن الواحد. ويجب أن تكون العلاقة البيئية مبنية على العفو المتبادل، لأنّه أدعى لجمع كلمة الوطن، وشيوع السّلم الاجتماعي، والتغلب على الصّعوبات، ولكن مع وضع حدّ يكبح الظّالم عن التّمادي في ظلمه. ويجب أن يمتلك المجتمع من الآليات ما تمكّنه من ضبط السلوك العام الصادر عن العامّة والخاصّة، عن الرّعيّة والفتنة الحاكمة، حتى لا يغترّ الحاكم بسلطته، ويكبح نزوعه. وهذا ممّا تقدّمت فيه الأمم المتقدّمة التي بنت حرّيتها، وديمقراطيّتها، وقطعت مع الظّلم وسدّت أبواب الدّولة والمجتمع عليه، وهذا من الدّين.

العفو خلق حميد ومطلوب بين أبناء الأمة الواحدة والوطن الواحد. ويجب أن تكون العلاقة البيئية مبنية على العفو المتبادل، لأنه أدعى لجمع كلمة الوطن، وشيوع السّلم الاجتماعي، والتغلب على الصّعوبات، ولكن مع وضع حدّ يكبح الظّالم عن التّمادي في ظلمه. ويجب أن يمتلك المجتمع من الآليات ما تمكّنه من ضبط السلوك العام الصادر عن العامّة والخاصّة، حتى لا يغترّ الحاكم بسلطته، ويكبح نزوعه

(4) محمد الطاهر بن العاشور تفسير «التحرير والتنوير»، سورة الشورى، المصدر نفسه.

(5) الفخر الرّازي، تفسير الآية 40، سورة الشورى، <https://tafsir.app/alrazi/42/40>.

(6) عبدالرحمان بن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، الكتاب الأول في طبيعة العمران في الخليقة، الفصل الثالث والأربعون «في أن الظلم مؤذن بخراب العمران» ص 18

(7) عبدالرحمان بن خلدون، المرجع نفسه.

(8) الفخر الرّازي، المرجع نفسه.





د. عثمان مصباح  
«أستاذ التعليم العالي - المغرب»  
alfitra01@yahoo.fr



## القصص القرآني من منظور جديد (6) سرّ الإرادة الإنسانية



الإرادة: طلبٌ قلبيّ لاجتلاب ما ينفع واجتنب ما يضرّ، وهي بهذا المعنى مشتركة بين أنواع الحيوان، لكن اختصاص آدم بالخلافة دالٌّ على أنّ إرادته تتفرد بميزات لا نظير لها عند بقية الأحياء، فما هي يا ترى تلك الميزات؟

### مقارنة تطبيقية

من المشاهد المعبرة في عالم الحيوان صورة الأسود وهي مستلقية في كسل لا تلتفت إلى قطعان البقر والغزلان السائمة بالجوار، فإذا عَضَّها الجوع تعاونت على اصطياد الفرائس، حتّى إذا ملأت منها البطون عادت إلى كسلها وزهداها الأوّل، لا تشغلها حياة تلك القطعان، ولا الخشية من هجرتها الموسميّة.

لو افترضنا بدل تلك الأسود جماعة إنسانيّة، فكيف سيكون سلوكها؟

الجواب لا يحتاج إلى تأمل، وهو بلا تردّد أنّهم سيحرصون على حياة تلك الأبقار والغزلان حياة كليّة، حتّى لو كانت مليون رأس! مع بقاء لهفة في القلوب تقول: هل من مزيد؟ ولن يمنعهم من ذلك إلاّ العجز.

وهذا معناه أنّ رغبة الإنسان في الامتلاك لا تحكمها الصّورات الحيويّة كما هو حال الأسد، لذا تجد من يمتلك وحده ثروة تكفي أمّة عظيمة من النّاس، ورغم ذلك تراه يجتهد في تنميتها، ومضاعفة أرقامها، ولو سألته: ما هو الرّقم المالي الذي ستقف عنده مساعيك؟ لما وجد جوابا حاضرا لهذا السّؤال الواضح!

## الإرادة المحبطة

مما اتفق على ملاحظته حكماء الأمم أن الإنسان لا يطمئن بعد الكدح مهما نال من متاع الدنيا، ومهما بلغ ملكه، فهو في طلب متجدد لا نهاية له، تراه ممتلئاً نشاطاً في بداية المشروع وأواسطه، حتى إذا بلغ النهاية المرجوة التي يتوقع عندها سعادة غامرة فوجئ بفراغ مقلق، وبرود عجيب.

إن شئت أن ترى ذلك عياناً في زمن قصير، فانظر إلى الطفل حين يرغب في شيء، فهو يلح في الطلب، ولو حيل بينه وبين ما يشتهي لبكى بحرارة ومرارة، حتى ليخيل

إليك أنك لو حققت مراده فسيسكن إليه، وينقطع به عن العالم انقطاع قمة إفرست، لكنه يفاجئك بعد التمكن من لعبته بفتور رغبته، ولا يطول به الوقت حتى يزهد فيها ويأخذ في التطلع إلى شيء آخر، هذا إن لم يحاول تهشيمها كأنه يبحث فيها عما ليس فيها.

## شقاء الإنسان بما يريد

ومن أحسن صور عطش الإرادة الذي لا يرتوي الأديب الناقد والمفكر المصري الشهير عباس محمود العقاد حيث يقول في قصيدة له:

صغيرٌ يطلبُ الكِبْرَ \*\*\* وشيخٌ ودَّ لو صَغُرَا  
 وخالٍ يشتهي عَمَلًا \*\*\* وذو عَمَلٍ به ضَجِرَا  
 وربُّ المالِ في تعبٍ \*\*\* وفي تعبٍ من افتقرا  
 وذو الأولادِ مهمومٌ \*\*\* وطالبُهم قد انْفَطرا  
 ومن فقدَ الجمالَ شكى \*\*\* وقد يشكو الذي بهرا  
 ويشقى المرءُ منهزماً \*\*\* ولا يرتاح منتصراً  
 ويبغى المجد في لهفٍ \*\*\* فإن يظفرُ به فترَا  
 شكاءُ مالها حَكَمٌ \*\*\* سوى الخصمين إن حضرا  
 فهل حاروا مع الأقدارِ \*\*\* رامُهم حَيروا القَدرا؟

وأعظم محبوب دنيوي هو الاستكثار من المال، مع أن العالم - كما يقول غاندي - فيه ما يكفي حاجات الجميع، لكنه سيضيع دائماً عن إشباع جشع الجميع.

والصحيح أنه سيضيع عن إشباع جشع فرد واحد، ذلك أن رغبة إنسان واحد هي أكبر من العالم كله، وقد روي أن النبي ﷺ كان يقول: «لَوْ أَنَّ ابْنَ آدَمَ أُعْطِيَ وَادِيًا مَلَأًا مِنْ ذَهَبٍ أَحَبَّ إِلَيْهِ ثَانِيًا، وَلَوْ أُعْطِيَ

ثَانِيًا أَحَبَّ إِلَيْهِ ثَالِثًا، وَلَا يَسُدُّ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلَّا التُّرَابُ»<sup>(1)</sup>.

وهذه الرّغبة الجنونيّة هي التي أشعلت الحروب العبثيّة عبر التّاريخ، وجعلت الإنسان يطرّو من قدرته التّدميريّة حتّى وصل إلى اختراع القنبلة النّوويّة، ثمّ القنبلة الهيدروجينيّة القادرة على تدمير الأرض دفعة واحدة.

## تقريب لحقيقة الإرادة الإنسانية

أهم ما يستفاد ممّا سبق تقريره:

العِبَادَةُ هي اسم لمحبة  
تحتل من الإرادة مركزها، تفيض  
بها قلوب الأبرار المطالعين  
للإحسان الإلهي، فتمنعهم  
أن يجعلوا لربّهم ندًا ونظيرًا، أو أن  
يتخذوا من دونه وليًا ونصيرًا..

- \* أن الإرادة لها تعلقان: تعلق بما يُطلب لذاته، وتعلق بما يراد لغيره.
- \* أنه ليس في أشياء الدّنيا مراد لذاته ينتهي عنده طلب الإنسان، إذ كلّ ما يُدرك من الدّنيا لا يطفئ عطش الإرادة، فتتطلّع لما هو أكبر، وكأنّ أشياءها مجعولة للتّوسل بها، لا للتّوسل إليها.
- \* أن الإنسان يولد وهو لا يعلم حقيقة المراد لذاته الذي ليس وراءه وراء، وليس بعده بعد، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾<sup>(2)</sup>
- \* أن الإنسان يحتاج إلى تعليم يجنبه الإحباط المتكرّر، ويطوي له الزّمان، فيعرفه على المراد الأعظم الذي لا مراد بعده.

إرادة الإنسان إذن مصمّمة للتعلق بشيء ليس كمثله شيء، وهو أكبر من كلّ شيء، تعلقًا لا يليق به في العربيّة إلا اسم العبادة، لذا قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾<sup>(3)</sup> والعبادة كما عرفناها سابقًا هي اسم لمحبة تحتل من الإرادة مركزها، تفيض بها قلوب الأبرار المطالعين للإحسان الإلهي، فتمنعهم أن يجعلوا لربّهم ندًا ونظيرًا، أو أن يتخذوا من دونه وليًا ونصيرًا. وهذه المحبة المركزيّة تستبغ من قوتها ما سواها من المحبوبات المناسبة، وتمحق في القلوب المحبوبات المضادّة، وتحمل الإنسان على تحمّل المكاره، وتجرّع مرارات الحياة.

وهذا النّوع من المحبة إذا صُرف لغير الله أشقى صاحبه، إذ يكون كالذي يريد أن يملأ ما بين السّماء والأرض بحبة رمل، أو كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ، أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾<sup>(4)</sup>

ومن الأمثال المرويّة عن النّبيّ الكريم في هذا الشّأن: «تَعَسَّ عَبْدُ الدِّينَارِ، وَعَبْدُ الدَّرْهَمِ، وَعَبْدُ الْخَمِيصَةِ»<sup>(5)</sup>، إن أُعْطِيَ رِضِي، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعَسَّ وَأَنْتَكَسَّ، وَإِذَا شَيْكَ فَلَا أَنْتَقَشَ»<sup>(6)</sup>.

(1) صحيح البخاري: 93/8، رقم الحديث: 6438، الطبعة السلطانية

(2) سورة النحل - الآية 78

(3) سورة الذاريات - الآية 56

(4) سورة الحج - الآية 31

(5) عبد الخميصة كالمهوس اليوم بالموضة

(6) صحيح البخاري: 4/34 رقم الحديث: 2887، الطبعة السلطانية.

ويا له من افتقار رهيب لا يزول ألمه إلا بأوثق عروة تربط بين الإنسان وخالقه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ، وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (7)

فإرادة الإنسان جوفاء تتطلب الامتلاء، ولا يملؤها إلا محبة الهية شاغلة: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ، أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ (8)

## محل المراد الأعظم من الكسب الإنساني

الإرادة الإنسانية لا تضبطها غريزة أولية صلبة كما هو شأن أكثر الأحياء، بل تضبطها التصديقات المعرفية، والقناعات الجماعية والفردية الواعية وغير الواعية، فلهذا يمكن إغواؤها وتضليلها

الكسب لا يصير واقعة نفسية أو اجتماعية إلا بثلاثة أركان هي: العلم، والإرادة، والقدرة، ويمكن تمثيل ذلك بمثلث الإنجاز التالي:



- \* العلم وظيفته الفطرية تعيين المراد الأعظم، ثم التعريف بالطريق إليه؛
- \* القدرة وظيفتها استثمار الموجود للوصول إلى المقصود، وهو المراد الأعظم؛
- \* الإرادة تتخذ العلم دليلا والقدرة مركبا طلبا للمحبوب الأعظم.

وهذه النمذجة صادقة على كل كسب إنساني، مهما كان محبوب الإنسان الأعظم، والفرق بين الناس إنما يكون بالعلم، فمن لم يقبل البيان الإلهي ضلّ في تعيين المراد الذي إليه المنتهى، وشقي بمراده في الدنيا والآخرة: ﴿نَمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ؟ قَالُوا: ضَلُّوا عَنَّا، بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا! كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ (9)، وإيكم تمثيل آخر لنظام الكسب الإنساني:



## ثغرات الإرادة الإنسانية

الإرادة الإنسانية لا تضبطها غريزة أولية صلبة كما هو شأن أكثر الأحياء، بل تضبطها التصديقات المعرفية، والقناعات الجماعية والفردية الواعية وغير الواعية، فلهذا يمكن إغواؤها وتضليلها.

(7) سورة فاطر - الآية 15

(8) سورة الرعد - الآية 28

(9) سورة غافر - الآيتان 73-74

والإرادة الإنسانية أيضا هي رغبة مُلوَكِيَّة لا تجد في الدُّنيا ما يواتيها، لا قيمة، ولا زمنا، فكأنما هي شوق إلى ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، مع رغبة في الخلد الأبدي، ولا محلّ لهذه المطالب في الدُّنيا. لهذا يحتاج الإنسان حصانتين: حصانة معرفيَّة ضدّ التّضليل، وحصانة سلوكيَّة ضدّ الاستعجال.

فالحصانة الأولى موقوفة على هداية ربّانيَّة لأنّ أهمّ المعارف فيها غيب، والحصانة الثانية تحقّقها التّقوى، والتي هي عبارة عن تماسك في انتظار وعد مؤجل.

الله تعالى كشف عن السرّ وراء جعله إرادة الإنسان على هذه الشّاكلة المتفردّة، وذلك حين أخبرنا عن ترشيح آدم لخلافة الله في الأرض، والاستخلاف مطالبة باتحاد إرادتين اتحاد تراض، فلا بدّ أن يكون نوع من التّناسب بين الإرادتين وإلا لم يكن معنى للخلافة.

### اختراقات إبليس

سرّ الإرادة الذي كشفناه أعلاه هو الذي تسلّل منه إبليس ليغري آدم وزوجه بالأكل من الشّجرة، فصوّر لهما أنّ الشّجرة المنهيّ عنها لها ظاهر وباطن، فالظاهر أن الأكل منها موجب للخروج من الجنّة كما أخبر الله، والباطن على العكس تماما.

بل زعم أنّ الله أخفى هذه الحقيقة ليمنع عنهما الخلد والملك المطلقين، فأوهمهما وجود إمكان خير من الإمكان الذي هما فيه، وأطمعهما في المحال: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوَاتِحِهِمَا، وَقَالَ: مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ، وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ. فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ، فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَاتِحُهُمَا...﴾<sup>(10)</sup>

والسّوءات التي خفيت على الزوجين هي سوءة الظّاهر التي انكشفت بسقوط لباس الجنّة، وكان كالريش بالنّسبة للطير، وسوءة الباطن هي التي انكشفت بالنّسيان الذي أحدثه إبليس عبر إساءة ظنّهما برّبهما وإغرائهما بما لا وجود له، فتورّطا في معصية الله الموجبة للطرد من الجنّة.

ولهذا بين الله لنا العبرة المستفادة من هذه الواقعة في قوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَاتِحَكُمْ وَرِيشًا، وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَٰلِكَ خَيْرٌ، ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ، يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمُ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوَاتِحَهُمَا إِنَّهُ يَرَآكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾<sup>(11)</sup>

(10) سورة الأعراف - من الآية 20 إلى الآية 23

(11) سورة الأعراف - الآيتان 26-27



فإراءة السوءات تحدث عند اغترار الإنسان بخيارات وهمية بديلة عن التكريم الإلهي الذي يُخرج من الإنسان أحسن ما فيه، فإذا بالمغرور في شباك عدوه المبين، عار من زينته التي كان قد أنعم الله بها عليه.

### خاتمة

الإرادة الإنسانية إذا تعلقت بالله تحوّلت إلى إرادة تعمير، واتسعت الدنيا لكلّ الناس، لكنّها إن تعلقت بالدنيا تحوّلت إلى إرادة تدمير، فتضيق الأرض على أهلها، لأنّ كلّ واحد يبحث في الدنيا عمّا ليس في الدنيا، إذ يطلب شيئاً ليس كمثلته شيء، وهو أكبر من كلّ شيء، ولن يقتنع الناس بالشراكة في الأرض إلاّ في وجود بديل عن الدنيا يكون أفضل منها، ذلك ما نبّه عليه البيان الإلهي:

﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا، وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى، إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ (12)

➤ الإرادة الإنسانية إذا تعلقت بالله تحوّلت إلى إرادة تعمير، واتسعت الدنيا لكلّ الناس، لكنّها إن تعلقت بالدنيا تحوّلت إلى إرادة تدمير، فتضيق الأرض على أهلها، لأنّ كلّ واحد يبحث في الدنيا عمّا ليس في الدنيا، إذ يطلب شيئاً ليس كمثلته شيء، وهو أكبر من كلّ شيء، ولن يقتنع الناس بالشراكة في الأرض إلاّ في وجود بديل عن الدنيا يكون أفضل منها

«

(12) سورة الأعلى - من الآية 16 إلى الآية 19



**الجدريد ...**

الكتاب 35  
من سلسلة "كتاب الإصلاح"

**"إسلام القرآن وإسلام التاريخ"**

تأليف: د. عثمان مصباح



## أوروبا صانعة التحول في العالم



يتمحور كتاب «أوروبا صانعة التحوّل في العالم»<sup>(1)</sup> حول المسألة الاقتصادية، وتحديدًا حول الرّيادة الأوروبيّة في هذا المجال الحيوي والحاسم في التّطوّر الحضاري. حيث تحاول أستاذة التاريخ الاقتصادي الإيطاليّة «فيرا زاماني» تفسير تلك الرّيادة من خلال تتبّع التّطوّرات الحاصلة في هذه القارة على مستوى تنامي القوّة الاقتصاديّة، ومن ثمّ تسرّب تلك التّحوّلات التّنمويّة وانتشارها في كافة أرجاء العالم. ومقارنة تلك الرّيادة بما حصل من محاولات مماثلة في حضارات أخرى، لم يسعفها الحظّ في تحقيق انتشار واسع أو بسط هيمنة فعليّة، وكذلك لم تكن مغرية حتّى تُقلّد أو تُحتذى خارج مجالها الذي تشكّلت فيه. إذ ثمة تساؤل مطروح في الأوساط العلميّة ألا وهو لماذا حصلت الثّورة الصّناعية في أوروبا دون غيرها من الفضاءات، مثل آسيا أو إفريقيا، برغم وجود حضارات عريقة وغنيّة حازت تقدّمًا تقنيًا وعسكريًا في زمانها؟ «فيرا زاماني» في إجابتها عن هذا السّؤال تدعم أطروحتها حول ريادة أوروبا بإبراز محوريّة التّطوّر الحاصل على مستوى المؤسّسات الاجتماعيّة والاقتصاديّة، ولا سيما على مستوى

(1) الكتاب: «أوروبا صانعة التحول في العالم.. تاريخ اقتصادي»، تأليف: فيرا زاماني، أستاذة جامعية تدرّس التاريخ الاقتصادي في جامعة بولونيا الإيطالية. سبق لها أن نشرت في دار نشر إيل مولينو سلسلة من المؤلفات: «التّصنيع والتّفاوت بين الجهات في إيطاليا» (1981)، و«من الأطراف إلى المركز» (1990)، و«الثّورة الصّناعيّة وسياسة الاندماج الأوروبيّة» (1990) الناشر: إيل مولينو (مدينة بولونيا-إيطاليا) «باللغة الإيطاليّة». سنة النّشر: 2020. عدد الصّفحات: 344

» بحسب الكاتبة يتمثل المحدد الرئيسي الاستراتيجي في تطوّر مختلف المجتمعات في الرؤى الفلسفية الدينية للعالم، وفي التنظيم الاجتماعي المتولد عنه، المدعوم بسائر المؤسسات السياسية والتنظيمات الاجتماعية



القيم التي تمثل الدافع المتين المتواري لتلك التحوّلات. حيث تصافّر التقدّم في أوروبا مع اقتراب من تحقيق مطلب العدالة الاجتماعية (الحقوق) وترسيخ مبدأ المساواة الاقتصادية (الرّفاه الاجتماعي).

تخصّص المؤلّفة الفصول الأربعة الأولى من كتابها إلى القوى الاقتصادية التي عرفها تاريخ البشرية، من خلال مقارنات بينها تحدّد على ضوءها عوامل القوة والضعف فيها، وعوامل الانحصر والانتشار التي

ميّزتها. تنطلق «فيرا زاماني» في دعم أطروحتها من خلال رصد مظاهر التطوّر الاقتصادي في العالم، منطلقاً من مراحل متقدّمة في التاريخ، تعود إلى تسعة آلاف سنة قبل الميلاد، لتبلغ إلى حين تفجر الثورة الصناعيّة في العصر الحديث وانعكاساتها على كافة أرجاء المعمورة. فلا ريب أنّ الحضارات الشرقيّة بأنواعها، السومريّة والآشوريّة والبابليّة والمصريّة والقرطاجيّة والهنديّة والصينيّة، وحتىّ حضارات أمريكا الجنوبيّة قد شهدت تشكّل نواتات ثورات حضاريّة، مثلت فريدة وقوّة ضاربة في عصرها، كشأن ابتكار مفهوم الدّولة الحاصل في أوروك (الوركاء العراقيّة) الذي أخرج البشريّة من مجتمع اللادولة إلى مجتمع الدّولة، ولكن تلك التطوّرات على أهمّيّتها وريادتها حينها، لم تشهد في حيزها ميزة التراكم وخاصيّة التواتر وكذلك لم تتسم بطابع عالمي، حيث لم تسرِ عدواها كما حصل مع التجربة الأخيرة الأوروبيّة. مذكرة أنّ الأرض كانت عامرة بالثروات الطّبيعيّة التي بقيت جامدة أو دفيئة إلى حين بلوغ الغزاة الأجانب. وتورد الكاتبة في الشّأن حالة أمريكا الشماليّة، حيث وُجدت فيها مجتمعات شبه مترحلة ومنغلقة على ذاتها، وذلك إلى حدود أواخر القرن السّادس عشر، ولم يحصل تطوّرهما سوى بحلول الأوروبيين.

وبحسب الكاتبة يتمثل المحدد الرئيسي الاستراتيجي في تطوّر مختلف المجتمعات في الرؤى الفلسفية الدينية للعالم، وفي التنظيم الاجتماعي المتولد عنه، المدعوم بسائر المؤسسات السياسية والتنظيمات الاجتماعية. وفي تحديدها لمعايير التطوّر تلك، تسعى زاماني للمقارنة بين المؤسسات الاقتصادية الفلاحية المتقدّمة في أوروبا والصّين والفضاءات الإسلاميّة، مستثنية الهند من ذلك بتعلّة غياب تحقيق مكتسبات بارزة في الشّأن. فمُثلّت الصّين وأوروبا والبلاد الإسلاميّة، وفق زاماني، هو الفضاء المتميّز على البسيطة الذي اختزن ابتكارات زراعيّة مركّبة، وتنظيمات اجتماعيّة راقية، ونُظم سياسيّة صلبة، دفعت بالبشريّة للخروج من طور اقتصادي إلى طور آخر وأهلته للوقوف على عتبة التحوّل الحديث، وهو ما اقتنصت أوروبا خلاصته ودفعت به إلى مشارف الكونيّة مع المرحلة الحديثة. وللإمام بالعوامل الأساسيّة

للتباين تقارن الكاتبة بين الأبعاد الرئيسية للمجتمعات الثلاثة: نظام الحكم السياسي، وسير نظام العدالة، ونظم الجباية والضريبة. وبحسب الكاتبة تميّزت أوروبا في هذه المقارنة بمحددات أربعة أساسية: المفهوم المسيحي للكائن البشري، بوصفه القيمة الوحيدة المطلقة؛ والعلاقة الأفقية الرابطة بين الأشخاص المتأتية من القيم المسيحية؛ والإشادة بالعقل كسبيل ذهني؛ وفي النهاية الفصل بين السلطات وما انجر عنه من تمييز بين المجالين الديني والسياسي، وقد أقرت الكاتبة أنّ الحضارتين

تأتى التبرعم الصناعي الأول في بريطانيا، جراء توفر نظام سياسي مؤسّساتي يشجّع على التجديد، وما رافقه من تشريع قانوني يملي ضريبة على الأغنياء بقصد إعادة توزيعها عند الحاجة على المتضررين، ويقدم سلسلة من الضمانات في حال التعرض إلى العوز والحاجة والإفلاس.

الصينية والإسلامية قد شهدتا ما يماثل تلك التطورات، لكنّها لم تتحوّل إلى نمط اجتماعي يغري بالاتباع لدى أمم أخرى لاحتذائه والنسج على منواله، وهو ما جعل تلك التجارب، على تقدّمها، تنكفي على ذاتها وفق تفسير «فيرا زاماني».

بعد تلك المقارنات على مستوى عالمي، تركّز «زاماني» في الفصلين الخامس والسادس اهتماماتها في تحليل خاصيات المدينة الأوروبية منذ القرن الحادي عشر، ودور الاكتشافات الجغرافية في تطوّر نشاط التجارة العالمية. حيث شهدت أوروبا أسرع حركة تصنيع، وكانت أول قارة تشهد انتشار النقل عبر السكك الحديدية نتاج حركة التصنيع المبكرة. كما كانت القارة التي شهدت أرقى أشكال التنظيم الاجتماعي، وفي الزاكن الحالي الأقرب إلى نظام المساواة وحماية الشرائح الضعيفة والتطوّر الاقتصادي. لتنتهي بالحديث عن التبرعم الصناعي الأول في بريطانيا، والمتأتي جراء توفر نظام سياسي مؤسّساتي يشجّع على التجديد، وما رافقه من تشريع قانوني يملي ضريبة على الأغنياء بقصد إعادة توزيعها عند الحاجة على المتضررين، ويقدم سلسلة من الضمانات في حال التعرض إلى العوز والحاجة والإفلاس. فمفهوم ضمان حقّ الرفاه قد نشأ مع سنّ «قوانين الفقراء» (Poor laws) (سنة 1601) التي هدفت لتقديم العون للمحتاجين عند الضرورة، وهي من الضمانات الاجتماعية التي أقرتها الدولة لتحمي بها شرائح واسعة من الانهيار، وتدفع بها للانطلاق مجدداً في عملية النشاط الاجتماعي والإنتاج، ومن ثمّة استئناف المساهمة في الدورة الاقتصادية. فضلاً عن سياسات أخرى أقرتها الدولة، تشجّع على الابتكار التقني والمبادرة الحرّة، ناهيك عن اتخاذ تدابير حولت العمل المنزلي وأخرجته من إطاره الضيق الأسري إلى العمل الحرّ ومن ثمّة نحو المصانع الكبرى، وهو ما ترافق بتطوّر الآليات البخارية التي بدأ معها الاستغلال للثروات في باطن الأرض. مبرزة ضمن ذلك التحليل دور الدولة الحاسم في توجيه العملية الاقتصادية

ورسم الخطط التَّموية، حيث بقدر ما كانت المبادرات فردية جاءت مدفوعة أيضا بتشجيع الدولة ورعايتها.

وبرغم أن زاماني تركّز في تلك الريادة البريطانيّة على التحوّلات الاقتصادية الحديثة، نجدها توسّع من نطاق رؤيتها لتشمل الفضاء الأوروبي متتبّعة بوادر التطوّر في كلّ من بلجيكا وألمانيا وإمبراطورية هابسبورغ وروسيا وإيطاليا وإسبانيا، مبرزة مختلف سياقات التطوّر فيها، لكنّها تذهب إلى كونها مجرد تقليد لما حصل في بريطانيا. وهي تجارب وإن حققت تقدّما لا بأس به فإنّها لم تنتهيا لها العوامل الحاضرة التي توفّرت في بريطانيا، ولا سيما في

تري الكاتبة أن المنتفعين بعائدات الاستعمار ليست الدول المستعمرة، بل أصحاب المشاريع وملاك المؤسسات ومختلف المستثمرين. فقد كانت شعوب تلك البلدان ترزح تحت ضغط ارتفاع الضرائب وسياسات التقشف في الداخل، في وقت كانت فيه مغانم الاستعمار تتكدّس لدى بعض الخواص على حساب عامة الناس من خلال توظيف قوّة الدولة وسطوتها لصالحهم

تزاوج الإرادة السياسيّة مع مختلف العناصر الأخرى الضرورية من مؤسسات وابتكارات.

وعلى مدى ثلاثة فصول، السّابع والثامن والتّاسع، تنحو فيرا زاماني لتناول تراجع الريادة الإنجليزيّة وتحول النهوض الاقتصادي باتجاه فضاءات جديدة داخل أوروبا وخارجها. حيث تحاول المؤلفة فهم التطوّر الاقتصادي المنبعث خارج أوروبا أوّلا، لا سيما في أمريكا واليابان. فالتطوّر الاقتصادي في أمريكا يعود بالأساس إلى عوامل وفرة الثروات الطبيعيّة، وقلة عدد السّكان، واتساع الرقعة الجغرافيّة. وبالتالي من الطبيعي أن يؤدّي توفّر هذه العناصر إلى نمو اقتصادي متسارع، وهو ما اختلف جذريا مع واقع الحالة اليابانيّة التي ينعم فيها البلد بثروات محدودة وكثرة في عدد السّكان، الأمر الذي أملى على السّياسات الاقتصاديّة أن تنحو باتجاه مخطّطات تنمويّة مغايرة، تتلخّص في إصلاح المؤسسات والإشراف عليها من فوق، ناهيك عمّا تمّ تدشينه من تعاون وثيق بين المؤسسات الخاصّة وتكامل في أشغالها.

ثم تتناول المؤلفة بالتّحليل تطوّر الماليّة الدوليّة بين نهاية القرن التّاسع عشر وبداية القرن العشرين، حيث بدأ نظام المديونيّة والإقراض والمعاملات البنكيّة يشهد ترسّخا على مستوى موسع. مدرجة ضمن ذلك المحور حديثا عن مرحلة الاستعمار الغربي، ولتصل إلى خلاصة مفادها أن المنتفعين بعائدات الاستعمار ليست الدول المستعمرة، بل أصحاب المشاريع وملاك المؤسسات ومختلف المستثمرين. فقد كانت شعوب تلك البلدان ترزح تحت ضغط ارتفاع الضرائب وسياسات التقشف في الداخل، في وقت كانت فيه مغانم الاستعمار تتكدّس لدى بعض الخواص على حساب عامة الناس، من خلال توظيف قوّة الدولة وسطوتها لصالحهم،

مستغلين بذلك حتى أبناء وطنهم.

لينتهي التحليل في الفصول التالية، من العاشر إلى الرابع عشر، إلى الحديث عن أمركة أوروبا على مستوى اقتصادي، خصوصا بُعيد الحرب العالمية الثانية. فقد ساهمت أمريكا في دفع عجلة التنمية في أوروبا المنهارة بعد الحرب من خلال ضخ ما يعادل 850 مليار دولار في تلك الاقتصادات المتضررة جراء ويلات الحرب. وهي المرة الأولى في التاريخ التي يساهم فيها المنتصر في مد يد العون للمنهزم. وهكذا تطوّر الدّخل القومي في البلدان المهزومة والمتضررة من الحرب بشكل فوري ومتصاعد.

فمن العام 1948 إلى 1952 شهد الدّخل القومي في ألمانيا تطورا بـ 61 %، وفي النمسا بـ 44 %، وفي إيطاليا بـ 31 %، وفي فرنسا بـ 27 %، في حين شهد النمو في الولايات المتحدة 14 %.

يركّز الكتاب كذلك على «العقود الثلاثة الذهبية» التي عرفها الاقتصاد الأوروبي بين سنوات 1945 و1973. وهي الفترة التي شهدت تقلصا للفجوة الاجتماعية بين سائر المواطنين وازديادا ملحوظا لمستوى الرّفاه ولنسب الاستهلاك، حتّى أنّ بلدانا أوروبية شهدت قفزة خارقة في تلك الفترة أخرجتها من طور متردّد إلى طور متقدّم. وحالة إيطاليا التي كانت خزانا لتصدير المهاجرين واليد العاملة وعنوانا للتفاوت المزري بين الشّمال والجنوب، تحوّلت في ظرف وجيز إلى بلد متطور، استطاع أن يغدو من بين أقوى الاقتصادات في العالم. لكن التحول البارز في أوروبا وهو ما بدأ يطلّ مع مطلع سبعينيات القرن الماضي، وفق زاماني، مع التوجه نحو العولمة، أو ما تطلق عليه بالثورة الصناعية الثالثة. لتصل الكاتبة إلى الحديث عن فكرة الاتحاد الأوروبي، التي باتت مطروحة كحلّ للوقاية الاقتصادية بغرض الوصول إلى خلق قوة أوروبية نافذة على مستوى عالمي.

تخصّص الكاتبة الفصلين الخامس عشر والسادس عشر من مؤلّفها للحديث عن التّطورات الاقتصادية الحاصلة في آسيا، في كوريا واليابان والصّين وماليزيا والمتمحورة حول تدخّل الدولة القويّ في رسم السّياسات الاقتصادية، مع توظيف استثمار كثيف في المجال الصّناعي وتشجيع للمؤسّسات المحليّة وعرقلة للمؤسّسات الخارجيّة. ثم تعرّج على تناول السّياسة الليبراليّة الجديدة المتبناة في الاتحاد السوفياتي إبان فترة بوريس يلتسين وما خلفته من دمار اقتصادي. ثمة مرجعية ثرية للكتاب في تتبّع تحولات القوة الاقتصادية في أوروبا وفي أرجاء

يركّز الكتاب كذلك على «العقود الثلاثة الذهبية» التي عرفها الاقتصاد الأوروبي بين سنوات 1945 و1973. وهي الفترة التي شهدت تقلصا للفجوة الاجتماعية بين سائر المواطنين وازديادا ملحوظا لمستوى الرّفاه ولنسب الاستهلاك، حتّى أنّ بلدانا أوروبية شهدت قفزة خارقة في تلك الفترة أخرجتها من طور متردّد إلى طور متقدّم.



العالم. مع استعانة للكاتبة بالعديد من الجداول ضمن مؤلفها لتوضيح التطورات بشكل تلخيصي وميسر على القارئ.

وفي الفصل السابع عشر والأخير من الكتاب تتناول الكاتبة صعود الليبرالية الجديدة بوصفها شكلا من أشكال التجدد في النظام الرأسمالي، مع ما خلفته من أزمات على مستوى البنوك وهو ما جرّ منذ العام 2007 إلى أزمة قويّة في الأوساط الأوروبية وإلى تراجع قيمة اليورو، ما فرض على تلك الدول الدخول في سياسات تقشّف خلّفت تراجعاً في الاستهلاك. لكن ذلك الوضع لم يتوقف

عند ذلك الحد بل أفرز تشكّكا في مستقبل المجموعة الأوروبية، دفع بعض البلدان للتهديد بالخروج من تلك الرابطة أو التلويح بالتخلي عن عملة اليورو.

نلحظ رؤية حاسمة لدى فيرا زمانبي تخترق كتابها، كون التطور هو حتمي في أوروبا دون غيرها بموجب توفّر عناصر حضارية محورية في الشأن. يبرز من تلك العناصر أساسا الإرث المسيحي و«القيم المسيحية» ولا ندري أين كان ذلك المخزون الروحي، طيلة قرون التردّي والفوضى، قبل حصول النهضة الأوروبية؟ فزعم الفصل بين المجالين الديني والدنيوي، ما كان منبعه لاهوتياً، والكنيسة لم تتخلّ عن ذلك التّحكّم بالمجالين سوى مع حصول ما يشبه الثورة في المجتمعات الأوروبية، لا سيما مع البروتستانتية والتّنوير، بعد أن طردت الكنيسة من المجال السياسي.

كما أنّ التحليل للتطورات الاقتصادية المنقوصة في الفضاءات الأخرى يُعرض بشكل مبتور أحيانا، ولا تتعرّض الكاتبة إلى الدور التّعطيلي لأوروبا لتلك الفضاءات. صحيح أن أوروبا قد غيّرت العالم، ولكن تغييرها جاء مفروضا غصبا في العديد من البلدان، بعد تدمير البنى الحضارية في الفضاءات المستعمرة، ولذلك ارتفعت أصوات بعد رحيل الاستعمار تنادي بالعودة إلى الذات وتصفية بقايا التّبعية، وهي عمليات ليست هينة في ظلّ خلق عقليّة بديلة متسرّبة في التعليم والاجتماع والاقتصاد، بلغت في بعض البلدان حدّ تغيير اللسان وحرف الكتابة.

» نلحظ رؤية حاسمة لدى فيرا زمانبي تخترق كتابها، كون التطور هو حتمي في أوروبا دون غيرها بموجب توفّر عناصر حضارية محورية في الشأن. يبرز من تلك العناصر أساسا الإرث المسيحي و«القيم المسيحية» ولا ندري أين كان ذلك المخزون الروحي، طيلة قرون التردّي والفوضى، قبل حصول النهضة الأوروبية؟



د. مصدق الجليدي  
«أستاذ وباحث أكاديمي وكاتب»  
msaddakj2@gmail.com



## تأملات في حدث القرآن في شهر القرآن



لا تفارقني منذ عشرات السنين حالة التّعجب والاندھاش والغبطة المشوبة بالتحير، كلما تمثّلت واقعة مخاطبة الله للبشر من طريق الوحي لبعض عباده المصطفين بكتبه المقدّسة. أن يكون الله مؤلّفًا لكتب بلغة البشر بمداد وعي نبويّ استثنائيّ، فهذا أمر ليس عاديًا ولا هيئًا بالمرّة. ولذلك أن يزهد بعض البشر في الاطلاع على هذا الكتاب المتميّز عن كلّ الكتب في العالم والتّاريخ، فهذا أمر مثير للاستغراب الشّديد.

وأن يخاطب الله العليّ المتعالّي، العظيم الجليل، عباده الذين لا يمثّل حجم كوكبهم «الأرض» مقدار ذرّة في هذا الكون الواسع الممتدّ لمليارات السّنوات الضّوئيّة<sup>(1)</sup>.

وأن يتوجه بعلمه اللامتناهي (بصيغة ملائمة) إلى عقل الإنسان المحدود جدًّا رغم فذائته، فهذا حدث استثنائي مطلقًا، ولا يوجد حدث في كامل تاريخ البشريّة يضاهيه أهميّة وتفردًا. وهو في الحقيقة حدث ميتاتاريخي أو ماوراتاريخي، ولكن تنجيم الكتاب وتدرّجه في تربية الجنس البشري ومواكبة أوضاعهم جعله يتنزّل في التّاريخ.

(1) تفصلنا عن لحظة البيخ بانغ أو فتق رتق السّماوات والأرض بالتّعبير القرآني 13.8 مليار سنة ضوئيّة. مع العلم أنّ الضّوء يسير بسرعة 300 ألف كلم في الثّانية في الفراغ و250 ألف كلم في الثّانية في الهواء



الحيرة والاندھاش اللذان يملكاني وقد يملكان كل من يتخلّص من تأثير العادة والتقليد وذهنيّة الموروث، قد يكونان ناتجين لا عن حالة ريب ولا عن ريبية، وإنما عن فلسفة ضمنيّة للوجود قد تكون خاطئة، ولكنها الفلسفة التي يبنّيها العقل البشري لنفسه بحكم قانون «مجاري العادات» (الذي قال به الغزالي في سياق شرحه للمعجزات وتنسيبه لمبدأ السببيّة في الطّبيعة).

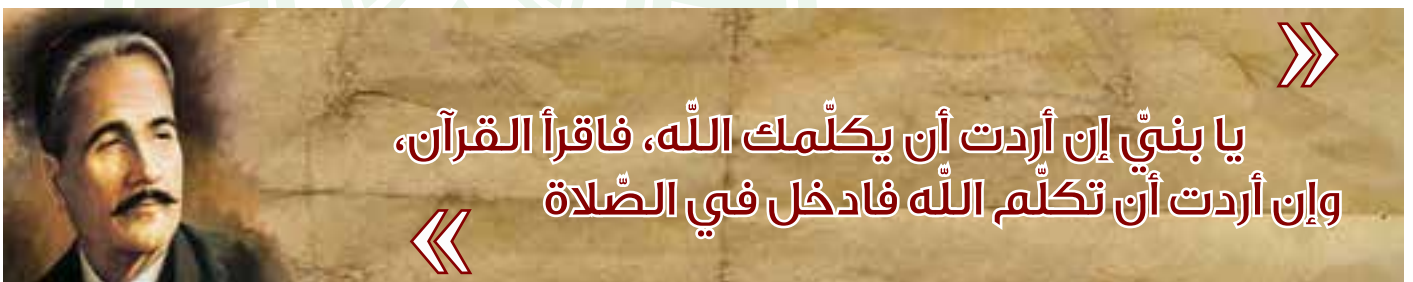
يظنّ العقل لطول معاشرته للإدراكات الحسيّة، أنّ المحسوسات هي أصل الوعي، وأنّ المادّة هي أصل الوجود، وأنّ التعاقب هو أصل تجلّي الأفعال، وأنّه مضاه للسببيّة. لكن من أدرانا أنّ المادّة ليست إلاّ صيغة من صيغ الوجود، وأنّ التعاقب ليس إلاّ «تباطؤًا» للفعل الوجودي؟

نظن أنّ وجودنا الأرضي هو مقياس كلّ وجود، وأنّ إدراكنا لحركة الأجسام هو العلم بما يحدث في الوجود. نحن (الذين نقدر على العودة لدهشة الطّفل) نندهش للوحي، بينما قد لا ندري أنّ الوحي هو روح العالم الحقيقي، وأنّ ارتفاعاً مؤقتاً لغشاوة الحسيّات هو من يجعل الوعي النبوي مستقبلاً للطاقة الروحيّة الكونيّة ومشاهداً لمجرى الوحي في تقاطعه مع الوضع الإنساني في مكان وزمان مخصوصين.

مع هذه التّمرينات التّفكريّة، سننظّل مغتبطين على الدّوام بأنّ خالقنا العظيم، قد ظهر لنا (الظاهر) وهو الباطن، وعبأ بنا وكلمنا مودّة ورحمة، وجوداً وكرماً، وحناناً من لدنه وزكاة، بكلامه الحكيم العليم وأشعّ علينا بنوره الخالد.

وصدق أبو محمد إقبال عندما توجّه لابنه قائلاً: «يا بنيّ إن أردت أن يكلمك الله، فاقراً القرآن، وإن أردت أن تكلم الله فادخل في الصّلاة».

فالحمد لله على هذه النّعمة الكبرى: نعمة التّواصل مع الله خالقنا العظيم الرّحيم.



يا بنيّ إن أردت أن يكلمك الله، فاقراً القرآن،  
وإن أردت أن تكلم الله فادخل في الصّلاة



## بين القرآن والسنة محاولة منطقية لرسم المناطق والحدود



لننتقل من وجهة نظر من يُسمّون «قرآنيين». هؤلاء يرون عدم اعتبار السنّة أصلاً والتقيّد حصرياً بنصّ القرآن. رأي لو سلّمنا به لوقعنا في مأزق: تفاصيل أركان من الأركان الخمسة للإسلام يرد عن طريق السنّة. فالقرآن لا يبيّن تفاصيل الصلوات الخمس ولا تفاصيل الحجّ ولا مقادير الزكاة. حجّة القرآنيين إذا في طريق مسدود.

وفي الجهة المقابلة، عند الاعتماد على السنّة تُطرح مسائل عدّة، ويتّسع المجال إلى حدّ تشعب السبيل. وإذا استثنينا العقول المغيّبة من سدّج ومتعصّبين لمذاهب ومفاهيم ضيّقة، فإنّ الكلّ يطرح ضرورة وضع آليات إضافية للانتقاء حتّى بالنسبة لصحيح البخاري أكثر المراجع التزاماً وتقيّداً بالضوابط التاريخيّة. فنحن شئنا أم أبينا أمام نصوص غير قطعّيّة الثبوت.

ولنا أن نلاحظ لمن يكاد أن يوازي بين القرآن وصحيحيّ مسلم والبخاري. هؤلاء يعتمدون على الحجّة التّالية: الصّحابة والتّابعون الذين نقلوا لنا القرآن هم الذين نقلوا لنا الأحاديث والسيرة النّبويّة، فيحاولون إقناعنا بأنّ التشكيك في نصوص السنّة يحتمل التشكيك في نصّ القرآن. ويتشبّث البعض بالدّفاع عن عدالة الصّحابة وكيف أنّ القرآن كرمهم وكيف أنّ البعض منهم بُشّر بالجنّة.

وإيكم وجهة نظري:

أولاً من النّاحية التوثيقية والتاريخية البحتة، فإنّ القرآن كان يحفظ كلياً أو جزئياً من طرف المئات من القراء، وهو مدوّن من بدايته، هذا ودون الحديث عن كون نصّ القرآن نزل مرسوماً أي أنّ الحروف

المستعملة في كتابته معيّنة حصرياً وتوقيفياً.

(مايسمى بالرّسم العثماني: كيفية رسم الهمزة، الحروف التي ترسم ولا تنطق، الحروف التي تنطق ولا ترسم بل يشار إليها كالألف الخنجريّة، التاء المفتوحة والمغلقة...)

أما نصوص الأحاديث فلم تكن في جلّها مدوّنة ولم تُجمع إلّا بعد أكثر من قرن.

ثانياً، من النّاحية العقديّة، فإنّ القرآن -خلافاً للكتب السّماوية السّابقة- هو كلام الله وهو كذلك قوله تعالى أي أنّ الصّياغة اللّغوية الإلهية وإعجازيّة. ولقد تكفّل سبحانه بحفظه وهو بقطع النّظر عن كلّ الأحداث وعن

كلّ المتدخّلين محفوظ حتما ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾<sup>(1)</sup> وهذا الأمر لا ينطبق على السّنة.

ثالثاً، وفي إجابة للمتشبّثين بالدّفاع عن الصّحابة من منطلق التّقديس أو بهدف الإصرار على إثبات عدالتهم، أقول: إنّ محاولة الرّبط بين تقوى الصّحابة ومدى الوثوق بهم كشهود ومبلّغين عن الأحداث والأقوال محاولة تفتقد الحكمة والدقّة. فكونهم تقاة أتقياء أو حتّى مبشّرين بالجنّة هذا يدلّ على مكانة معنويّة وأفضليّة دينيّة أكيدة سوف يجازيهم عنها ربّهم الحكم العدل، وهذا لا يعني عصمتهم ومناعتهم من السّهو وقلة الإدراك أو سوء الفهم والتّقدير. فلا يمكن تبسيط المسألة وتلخيصها في ثنائي الخير والشرّ أو حسن النّيّة وسوء النّيّة.

ومن المفيد إبداء الملاحظة التّالية:

عند ذكر ثنائي «القرآن والسّنة» نحن نجتمع بين كلمتين مختلفتين في الشّكل الاعتباري: القرآن هو نصّ واحد مضبوط ومحدّد بينما السّنة هي خليط متنوّع من نصوص أخبار السّيرة والأحاديث. إنّ إيلاء أخبار السّنة أهميّة دون ضوابط التّجرّد والحكمة يوصل الكثير إلى مغالطات وتشويه للدين، وتكون النّصوص الموضوعية أو تلك التي فسّرت بعيداً عن الموضوعيّة مطيّة للتّشردم المذهبي والتّطرّف الديني في بعض الحالات.

ولا بد من الإشارة إلى مسألة ذات أهميّة مفصليّة وهي مسألة معلومة:

عند ثبوت صحّة حديث أو خبر، يبقى علينا التّأكد من كونه يخصّ التّشريع فمحمّد ﷺ لم يكن يتصرّف كرسول (أي مشرّع) في كلّ المناسبات، بل كان يتصرّف أيضاً كإنسان وكنبيّ وكزعيم سياسي وكقائد عسكري وكقاضي ...

» من النّاحية العقديّة، فإنّ القرآن -خلافاً للكتب السّماوية السّابقة- هو كلام الله وهو كذلك قوله تعالى أي أنّ الصّياغة اللّغوية الإلهية وإعجازيّة. ولقد تكفّل سبحانه بحفظه وهو بقطع النّظر عن كلّ الأحداث وعن كلّ المتدخّلين محفوظ حتما ( إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) وهذا الأمر لا ينطبق على السّنة

والحقيقة أنّ الجهة المقابلة في الطرف الآخر ليست البتة أفضل حالا من سابقتها، فبعض القرآنيين يتعسفون على النصّ ويحاولون تطويع القرآن وليّ ذراع الكلمات للوصول إلى نتائج شاذة وموغلة في التطرّف وأصدق مثال: «الخوارج» .

ويبقى من أكثر المبادئ عقلانيّة وإقناعا المبدأ الذي يقرّ بأنه لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن تتعارض السنّة مع ما جاء في القرآن، وأنّه يتحتّم ترك كلّ حديث مناقض للقرآن. هذا المبدأ يرتكز على حجة صلبة دامغة لا يمكن تفاديها، ويغلب على الظنّ أنّ عليها إجماعا أو شبه إجماع في المستوى النظري؛ ولكن عملياً وعند التطبيق تغيب الأغلبية فيقع التبرير وتمرير نصوص لأحاديث مناقضة للقرآن الكريم.

وسواء تطرّقنا إلى القرآن أو السنّة هناك مسألة في

غاية الأهميّة تطرح نفسها: إعمال العقل والمنطق في فهم بعض الجوانب من الدين.

البعض ينكر استعمال العقل بصفة مبدئيّة ومثل العديد من المهتمين أقول إنّ خالق العقل والفكر والمنطق يخاطب العقل بالمنطق: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾<sup>(2)</sup>، ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾<sup>(3)</sup>، ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ﴾<sup>(4)</sup>،... ولا يمكن إنكار المبدأ بحجة مواجهة البعض من أصحاب المنطق المعوجّ.

والسؤال الذي يطرح نفسه في هذا المقام: «بين التقيّد الحصري بنصّ القرآن والاندفاع إلى تصديق كلّ النصوص الموروثة من «السنّة»، هل هناك موقع نسبي يجعلنا قريبين أكثر ما يمكن من الحقيقة؟» أعتقد أنّه لا يمكن تحديد هذا الموقع بطريقة الرياضيات والهندسة، ولكن عن طريق مؤشرات منطقيّة تحاور العقل فتقنعه، وتتمثّل في الآتي :

لو نظرنا إلى أهمّ المواضيع المقترنة اقترانا أكيدا بالسنّة: كبعض تفاصيل الوضوء والصلاة، ومناسك الحجّ، ونصاب الزكاة ومقاديرها، نلاحظ :

أولا ، أنّ الوضوء والصلاة والحجّ والزكاة كلّها مسائل معلومة ومذكورة دون شكّ في القرآن بكلّ وضوح. ثانيا ، المعلومة المنشودة ذات أهمية كبرى، فهي تخصّ أركاننا من أركان الإسلام، ولقد وردت عن طريق التواتر والتلقين المباشر من الرسول ﷺ إلى الصحابة ومن الصحابة إلى الصحابة والتابعين .

» يبقى من أكثر المبادئ عقلانيّة وإقناعا المبدأ الذي يقرّ بأنه لا يمكن بأيّ حال من الأحوال أن تتعارض السنّة مع ما جاء في القرآن، وأنّه يتحتّم ترك كلّ حديث مناقض للقرآن. هذا المبدأ يرتكز على حجة صلبة دامغة لا يمكن تفاديها، ويغلب على الظنّ أنّ عليها إجماعا أو شبه إجماع في المستوى النظري؛ ولكن عملياً وعند التطبيق تغيب الأغلبية فيقع التبرير وتمرير نصوص لأحاديث مناقضة للقرآن الكريم



(2) مثال ذلك قوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ سورة الغاشية - الآية 17

(3) مثال ذلك قوله تعالى : ﴿وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ سورة يس - الآية 68

(4) مثال ذلك قوله تعالى : ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ سورة محمد - الآية 24

ثالثا، وهذا الأهم، لا يمكن أن تحتمل مثل تلك المواضيع شبهة سوء النية في النقل أو محاولة التحريف، لأنه لا مصلحة أصلا لأي كان في التحريف، فهي عبادات يغلب عليها طابع السرية ومن شاء أن يمتنع أو ينقص أو يزيد فله ذلك. وفي كل الحالات حتى لو ذهبنا إلى أقصى حدود الفكرة وافترضنا أنه وقع التصرف في بعض التفاصيل، فإن النتيجة لن تكون كارثية .

ولو نظرنا إلى مواضيع وردت مفصلة في القرآن وأخص بالذكر منها «الميراث» .

لقد وردت مسألة الموارث بالتفصيل والتدقيق في سورة النساء، حيث كان التبليغ مباشرا ومكتملا. فموضوع الميراث مسألة تنظيمية علمية تعنى بتقسيم الثروة في إطار العائلة الضيقة وشبه الموسعة، ما من أمر أخطر من ذلك وأكثر تأثيرا على الاقتصاد والعلاقات الأسرية وعلى السلم الاجتماعي بصفة عامة، وهو من أكثر الأمور احتمالا لرغبة التزوير والتحريف من طرف غير الثقات.

ومن الواضح أنه سبحانه وتعالى -خالق الدين والعقل والمنطق- يريد أن يؤمن تفاصيل الميراث في القرآن، ذلك النص المحفوظ قطعي الثبوت، كما أنه بصفة عامة أمن رسالة الإسلام بنص محفوظ وهو القرآن خلافا للديانات السماوية السابقة .

لو نسقنا بين كل ما سلف، لتبينت لنا بعض الخطوط العريضة لآليات يمكن أن تفيدينا في فهم جوانب من الدين. هذا وإنني لأدعي التأسيس لنظرية كاملة متكاملة في فهم وتحديد موقع السنة وعلاقتها بالقرآن، ولكنني أصر على أهمية تلك الإشارات المنطقية وكونها يمكن أن تثير تساؤلات مفيدة وتثير بعض الأركان الغامضة، فتسهم في الاقتراب من الحقيقة.



العودة  
إلى النص الكامل

» لو نظرنا إلى أهم المواضيع المقترنة اقترانا أكيدا بالسنة كـ بعض تفاصيل الوضوء والصلاة، ومناسك الحج، ونصاب الزكاة ومقاديرها، نلاحظ أنها مسائل معلومة ومذكورة في القرآن بكل وضوح. وهي ذات أهمية كبرى، لأنها تخص أركاننا من أركان الإسلام، ولقد وردت عن طريق التواتر والتلقين المباشر من الرسول إلى الصحابة ومن الصحابة إلى الصحابة والتابعين . فلا يمكن أن تحتمل مثل تلك المواضيع شبهة سوء النية في النقل أو محاولة التحريف.





## وريثة قرطاج نحو إرساء وعي استراتيجي جديد



كان المقال تحت عنوان «تونس، كيف تكون وريثة قرطاج؟» ولكن بعد تفكير استقر الأمر على العنوان التالي «وريثة قرطاج، نحو إرساء وعي استراتيجي جديد» وذلك لسببين اثنين؛ أحدهما أن العنوان الأول ينطلق من الماضي محاولا العودة إلى المجد القديم وهو ما يشبه الفكر الرجعي المنتشر لدى فئة واسعة من العامة، بينما العنوان الثاني ينطلق من الماضي بفخر واعتزاز محاولا النظر في المستقبل عبر غرس وعي جديد يمثل حاجة أساسية للدولة ابتداءً وللمجتمع انتهاءً.

أما السبب الثاني فيقتصر البحث في العنوان الأول على سؤال كيف؟ بما هو سؤال يكون مناط بحثه في كيفية الوصول إلى الأمور وذلك من خلال النّش في الوسائل المعتمدة لتحقيق الهدف المنشود. أما البحث في العنوان الثاني فيشمل قسمين هامّين هما سؤال ماهو؟ بما هو سؤال يكون مناط بحثه عن ماهية الشيء وذلك لفهمه فهما صحيحا والسؤال الأهم وهو سؤال لماذا؟ بما هو سؤال يبحث في المقاصد والحكمة من الأمر، وهو ما يسهّل النظر في باقي عناصر البحث.

لن تكون الدولة التونسية وريثة للحضارة القرطاجية بعظمتها وجبروتها وقوتها إلا إذا ما سارت على نهجها وحققت عاملين رئيسيين هما؛ الاستقرار السياسي وذلك من خلال بناء نظام سياسي يضمن تشريك جميع الفئات الفكرية والسياسية في عملية اتخاذ القرار السياسي من جهة. والاستقرار القانوني وذلك من خلال إرساء منظومة قانونية قائمة على قيم العدل وتضمن للجميع (نخبة وعامة) التعايش تحت سقف القانون.

تكمن أهمية الموضوع في معرفة ماهية الوعي الاستراتيجي الجديد وذلك من خلال الإطار النظري أو التفكير الاستراتيجي (الجزء الأول) ثم معرفة مقاصد الوعي الاستراتيجي وذلك من خلال الإطار التطبيقي أو التخطيط الاستراتيجي (الجزء الثاني).

### الجزء الأول:

#### الإطار النظري / التفكير الاستراتيجي

يقوم الإطار النظري أو التفكير الاستراتيجي على مقومات عديدة يمكن إجمالها في نوعين؛ التشخيص السليم (العنصر الأول) وخارطة الطريق (العنصر الثاني).

#### العنصر الأول: التشخيص السليم

##### • الرسالة: (1)

لا يكون التشخيص سليماً إلا من خلال معرفة الرسالة

التي تصدر من الأوضاع الحالية. والرسالة هي تفاعل العوامل الداخلية للدولة (نقاط القوة + نقاط الضعف) مع العوامل الخارجية للدولة (الفرص المتاحة + التهديدات المتوقعة) وهو ما يساهم في معرفة أهم المحاور التي يمكن للدولة استثمارها سواء نقاط القوة أو الفرص المتاحة. وكذلك المحاور التي يمكن للدولة تطويرها سواء نقاط الضعف أو التهديدات المتوقعة.

يمكن القول بأن الوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي الوطني والإقليمي والدولي هو من بين أهم العوامل التي من شأنها أن تؤثر على الرسالة إما بالإيجاب أو بالسلب وهو ما يدعم قانون النسبية في جميع الظروف الداخلية أو الخارجية.

##### • الرؤيا: (2)

هناك قاعدة في علوم الاستراتيجيات تقول «لا توجد رؤيا دون قاعدة تاريخية». فلو تدبر نخبة الفكر في تونس ذلك لحدوا عديد القواعد التاريخية التي تتوافق مع الشخصية التونسية من ذلك مثل «عدم قبول الشعب التونسي الضرائب المرتفعة وكنتيجة لعدم القبول تتولد فيه مشاعر الغضب المفجر للثورة» والأمثلة على ذلك عديدة.

يمثل حسن التشخيص عند الرسالة نسبة 80% من نجاح الرؤيا، ولذلك فإن التشخيص الجيد يساهم في بلورة رؤيا طموحة ومتوافقة مع التطلعات التي اتفق عليها أغلب مكونات نخبة الإرادة

(1) للمزيد من المعلومات، انظر موقع: «e3arabi.com»: الرئيسية/ مال وأعمال/ إدارة الأعمال/ الرسالة الاستراتيجية ونمو المنظمة

(2) للمزيد من المعلومات، انظر موقع: «e3arabi.com»: الرئيسية/ مال وأعمال/ إدارة الأعمال/ الرؤيا

والفكر وذلك من خلال ميثاقين؛ أحدهما سياسي قانوني يتمثل في الميثاق السياسي (الدستور) وثانيهما اقتصادي اجتماعي يتمثل في الميثاق الاجتماعي (القانون).

## العنصر الثاني: خارطة الطريق

### • الأهداف (3)

لتحقيق الرؤية ينبغي التخطيط لمجموعة من الأهداف التي ينبغي تقطيعها إلى أهداف بالاستناد إلى معيار الوقت وهو ما يتم تقسيم الأهداف إلى ثلاثة أنواع؛ أهداف قصيرة المدى (إرساء الاستقرار السياسي مثلا) وأهداف متوسطة المدى (إرساء نموذج تنموي جديد) وأخيرا أهداف بعيدة المدى (الازدهار الاقتصادي والاجتماعي).

لا يكون الهدف قابلا للتحقيق إلا من خلال الاتصاف

بخمسة صفات؛ أن يكون الهدف المحدد بوقت معين قادر بالفعل على التنفيذ كما ينبغي أن يكون قابلا لتحديد مدى الإنجاز في هذا الهدف ومدى التقدم فيه وإليه.. كما أنه قابل لأن يكون على أرض الواقع فيكون حقيقيا ذا وجود فيزيائي مادي. ولا يستثنى الهدف السياسي منها.

### • السياسات

تعبر السياسات العامة عن فعل جهاز الدولة، وكيفما تدخل الفاعل في إقرار السياسات العامة، فإن هذه الأخيرة تتخذ وتتحدد على أنها صادرة عن جهاز قوي، وهو جهاز الدولة. والسياسات العامة من الاختصاصات التي تهتم بها الأجهزة العلمية الرسمية وشبه الرسمية المرتبطة بالدولة الحديثة. وحيث أن مسار عقلنة الدولة في القرن الواحد والعشرين حمل طموحا مشروعاً طرح نفسه، يتمثل في البحث عن السبل الكفيلة لتحقيق خدمة الدولة، وبالتالي خدمة الإنسان وتوفير الظروف المادية والمعنوية لعيشه، فإن التغييرات والتطورات ذات الطبيعة الدستورية والاقتصادية والاجتماعية التي مسّت الدولة كانت تسعى، مما كانت تسعى إليه، منح الدولة الإمكانيات الكفيلة والفعالة لتحقيق أهدافها (4).

## الجزء الثاني: الإطار التطبيقي / التخطيط الاستراتيجي

يقوم الإطار التطبيقي أو التخطيط الاستراتيجي على مقومات عديدة يمكن إجمالها في نوعين؛ الحلقة المفقودة (العنصر الأول) والأدوات المستعملة (العنصر الثاني)

(3) للمزيد من المعلومات، انظر موقع: «e3arabi.com»: الرئيسية / مال وأعمال / إدارة الأعمال / كيفية التخطيط

(4) للمزيد من المعلومات، انظر موقع: «politics-dz.com»: الرئيسية / دراسات سياسية / السياسات العامة / مفاهيم سياسية: تحديد مفهومات السياسات العامة.



## العنصر الأول: الحلقة المفقودة

### • المشاريع (5)

المشروع هو مسعى مؤقت يتخذ من أجل الوصول لمنتج أو خدمة أو نتيجة متفرّدة، وتقام المشاريع لتحقيق الأهداف عن طريق الإنتاج<sup>(6)</sup>. والمشروع هو عملية أو نشاط مقيّد بزمن، أي له تاريخ بداية وتاريخ نهاية، يتمّ القيام به مرّة واحدة من أجل تقديم منتج ما أو خدمة ما بهدف تحقيق تغيير مفيد أو إيجاد قيمة مضافة. كما أنّه مجموعة من الأنشطة التي تستخدم الموارد (سواء المال أو البشر أو الخامات أو الطّاقة أو المساحة أو التّرتيبات أو الاتصالات أو الجودة أو المخاطر أو ما إلى ذلك) من أجل تحقيق أهداف محدّدة سابقا. وذلك الحال بالنّسبة للمشاريع السّياسيّة والاقتصاديّة.

### • البرامج (7)

البرامج هي مجموعة من المشاريع المتوافقة والمتلائمة. والبرامج تقود إلى تغيير الدّولة من حالة أولى (وضع حالي) إلى حالة أخرى (وضع مستقبلي) بنتيجة مرغوبة فيها. فالبرامج السّياسية التي لا تتوفّر على دراسة علميّة واستراتيجيّة لا يمكن أن تكون ذات جدوى فعليّة على أرض الواقع. إنّ الأحزاب السّياسيّة التي تصوغ برامجها لخوض المعركة الانتخابيّة ولا تعتمد مثل هذه المنهجية، لن تكون جميع برامجها قابلة للتّحقيق على المستويين الواقعي والسّياسي. ولذلك فعلى النّائب أن يعتمد على جملة هذه المعايير العديدة في اختيار مرشّحه إن كان يريد بالبلاد والعباد خيرا، وإلاّ فإنّ صوته سيذهب هباء منثورا، وهذا هو الحاصل الفعلي.

## العنصر الثاني: الأدوات المستعملة

### • الإجراءات (8)

الإجراءات هي القوانين والتّراتيب التي تقوم عليها الدّولة. إنّ نجاح قرطاج في تأسيس إمبراطوريّة كبيرة يعود أساسا إلى أمرين إثنيين؛ الأول هو استقرار النّظام السّياسي عبر تشريك معظم فئات المجتمع التي يحق لها المشاركة في الحياة السّياسية. ولم يحدث ذلك إلاّ من خلال إحداث «دستور قرطاج» الذي

(5) الدليل المعرفي لإدارة المشاريع، الإصدار السادس، صفحة 4

(6) المصدر نفسه، صفحة 4

(7) المصدر نفسه، صفحة 14

(8) المرجع نفسه، صفحة 40

أشاد به الفيلسوف اليوناني «أرسطو». وأما الثاني فهو استقرار المنظومة القانونية في الدولة وذلك عبر سنّ قوانين تقوم بالأساس على احترام العدل بين جميع فئات المجتمع القرطاجي، وهو ما أدى إلى إشاعة قيمة العدل بين الجميع وخاصة العدالة الاجتماعية ما أدى بالضرورة إلى قيام إمبراطورية نازعت الإمبراطورية الرومانية.

### • الميزانيات (9)

نقصد بالميزانيات جملة الموارد المالية والمادية المتاحة التي تسخر من أجل تنفيذ المشاريع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وهو أمر لا يعدّ من الكماليات في تنفيذ المشروع بل هو من أوكد الأولويات التي من شأنها أن تؤثر على البرامج برمتها.

### خاتمة

يمثّل التّوجه الاستراتيجي أهمّ عناصر التّطوير ومن أهمّ السلوكيات التي تسعى الدولة لاكتسابها. وكما يتجلّى أنّ هذه التّوجهات تصلح للدول كما للشركات والمؤسسات، فإنّها تصلح ان التّحديات التي تعترض الدولة تعتمد حولا تكون قائمة على منهج استراتيجي علمي واضح تعتمد الإصلاح المستمر والايمان بنسبية الظرفية الزمنية (التاريخ) والمكانية (الجغرافيا) والتفاعل بينهما، وهو ما يساهم في اتخاذ قرارات تتوافق مع السنن التاريخية والتفاعلات الجغرافية ممّا يساهم في التطور.

(9) المرجع نفسه، الصفحة 231





جواد احيوض  
«الجامعة الاروية للعلوم الانسانية/ باريس»  
jaouad.ahyouad@gmail.com



## قراءة في تحديات التراث بين الإقصاء والتكامل: موقف الجابري الفلسفي من أبي حامد الغزالي نموذجا..(4/1)



يعالج هذا المقال؛ نظرة محمد عابد الجابري الفلسفية تجاه أبي حامد الغزالي، أبرزنا فيه؛ كيف مارس الجابري منهجا تجاوزيا، قفز من خلاله على روح وأصالة النقد العرفي الفكري التراثي -الذي مارسه الغزالي وفعله واقعا منعينا في الساحة العربية السلمية على مستوى التأليف والتعليم والتوجيه، الى جانب طرح إشكالات جديدة تطلبها روح العصر- لدرجة ألغى فيها الجابري الغزالي من خلال «قراءته للتراث» بطريقة متعسفة، طغى فيها الطرح الإيديولوجي على الطرح الموضوعي للتراث، هذا التراث الذي ساهم في تأسيس دعائمه رجال كبار مثل ابي حامد الغزالي. ولأجل هذا جاء المقال هادفا إلى قراءة نوعية أخرى، تخرجنا من منطق الإقصاء إلى منطق التكامل والتدافع الحضاري

### مقدمة

يعد «أبو حامد الغزالي» أحد أقطاب الفكر الإسلامي، في القرن الخامس الهجري، كما يعد «محمد عابد الجابري» من أبرز الشخصيات في الفكر العربي الإسلامي المعاصر، التي ساهمت في إغناء المكتبة العربية الإسلامية والعقل العربي أيضاً. ومن الطبيعي أن التفكير الإنساني مبني على التراكمات المعرفية، وعلى هذا الأساس يكون «الجابري» باعتبار التاريخ (1935-2010م) قد فكّر من خلال من سبقه، وبني معرفته عليهم، سواء كانت هذه المعرفة مؤيدة أو ناقدة أو تجاوزية / إبداعية.

وهنا نطرح السؤال التالي: ما نوع العلاقة التي تربط محمد عابد الجابري بمن تقدّمه من المفكرين

الفلاسفة، والغزالي منهم على وجه التحديد؟ وهل للغزالي حضوة تراثية عند الجابري مثل التي عند ابن رشد «فيلسوف قرطبة»؟ أم لا؟ وإذا لم تكن، ما السبب الرئيسي في ذلك؟.

تبينت لنا هذه الإشكالية، عندما اتضح لنا، أنّ الشخصية الإنسانية الحضارية، مستمدة من فهمها العميق لتراث أجدادها، كي تفهم حاضرها بعمق، وتستشرف للمستقبل، لذلك انطلقنا من دراسة تراث فكر أبي حامد الغزالي، لما شكّله من قفزة نوعية في الفكر الفلسفي المستوعب لما قبله والنّاقده في بعض مضامينه من جهة، ومن جهة ثانية يشكّل الغزالي حلقة وسطى بين المتقدمين والمتأخرين. ثمّ اعتمدنا الجابري باعتباره أحد الدّاعين إلى مشروع قراءة التراث الفلسفي في العصر الحالي، من خلال رؤية جديدة: «كيف نقرأ التراث؟» بالإضافة إلى العلاقة التي تربط بينهما؛ من حيث التصور

» ليس للجابري، كتاب مخصوص حول أبي حامد الغزالي، يعرض فيه آراء هذا الأخير وأفكاره، ويوضح فيه اتجاهاته الفلسفية وحدودها، ليتبين لنا منه تصور الجابري حول هذه الشخصية، وإنما له بعض النّنف مشتتة هنا وهناك، وخلصتها موجودة في مدخل كتابه «تهافت التهافت: انتصارا للروح العلمية وتأسيساً لأخلاقيات الحوار» أين تناول تقييمه لفكر الغزالي، كاشفاً تشاؤمه منه، بطريقة مباشرة في بعض الأحيان، وغير مباشرة في أخرى!!



الفلسفي، من خلال كتاب التهافت / المتمثلة في ربط السابق باللاحق واللاحق بالسابق.

ومن خلال قراءتنا لهذين «العلمين»، اتضح لنا أنّ هناك إشكالات بين الجابري والغزالي، على شاكلة «مصارعة الفلاسفة» في مقابل «مصارع المصارع» و«تهافت الفلاسفة» في مقابل «تهافت التهافت» يشبه في بعض الأحيان قانون الغاب «القويّ ايدولوجيا، يأكل الضّعيف»!.

وعليه، فإنّ الفرضية التي ننطلق منها تكون على الوجه التالي: أنّ الجابري في قراءته للتراث، أقصى الغزالي من السّاحة الفكرية، إن لم نقل ألغاه بشكل تعسّفي!! الأمر الذي دفعنا إلى قراءة نوعية أخرى، تخرجنا من منطق الإقصاء، إلى منطق التكامل والدّفاع الحضاري. فإلى أي حدّ، تعدّ هذه الفرضية صحيحة؟ وما الأدلة الموضوعية على صحّتها؟

للبحث في هذا الموضوع، وللإجابة على هذه الاسئلة بشكل موضوعي، التزمنا بالمنهج التحليلي باعتباره المنهج الكفيل في مثل هذه البحوث؛ منهج يقوم على دراسة الإشكالات العلمية، المختلفة تفكيكاً أو تركيباً أو تقويماً. نروم من خلاله في هذه الورقة التّصحيح والتّقويم لا الرّفص المطلق.

### حقيقة: «الضربة القاضية» الجابرية:

بخصوص «الضربة القاضية»: فإنّ المقصود بها على المستوى التّداولي هو الضربة النهائية في القتال، تلك التي يوجّهها الخصم الأول للخصم الثاني؛ بحيث يصير الخصم الثاني غير قادر على مواصلة النّزال. والمصطلح منتشر في العديد من الرياضات القتالية، خاصّة الملاكمة. واستعارها الجابري ليبين لنا أنّ هذه المقولة الشائعة التي تقول: «إنّ أبا حامد الغزالي ضرب الفلسفة ضربة واحدة لم تقم لها قائمة»

غير صحيحة، وإنما الضربة القاضية المفصليّة، هي تلك التي وجّهها الجابري للغزالي. فما هي هذه الضربة القاضية ياترى؟

ليس للجابري، كتاب مخصوص حول أبي حامد الغزالي، يعرض فيه آراء هذا الأخير وأفكاره، ويوضح فيه اتجاهاته الفلسفيّة وحدودها، ليتبين لنا منه تصور الجابري حول هذه الشّخصيّة، وإنما له بعض النّتف مشتتة هنا وهناك، وخلصتها موجودة في مدخل كتابه «تهافت التّهافت لابن رشد» الذي عنونه بما يلي «تهافت التّهافت: انتصاراً للرّوح العلميّة وتأسيساً لأخلاقيات الحوار» مع مقدّمة تحليّية، بالإضافة إلى الشّروحات داخل المتن، وعلى الهامش في بعض الأحيان. وهذا المدخل

من الكتاب، يتناول فيه الجابري، تقييمه لفكر الغزالي، كاشفاً تشاؤمه منه، بطريقة مباشرة في بعض الأحيان، وغير مباشرة في أخرى!!.

ومن قرأ مدخل الكتاب مع المقدّمة التحليليّة، وهما في حوالي تسعين صفحة، سيتبين له؛ أنّ أبا حامد كأنّه «لم يكن شيئاً مذكوراً» عند الجابري!! هذا بالإضافة إلى قرائن أخرى من كتابه «نحن والتراث» وكتابه الآخر «سيرة ابن رشد».

والجابري في مدخل الكتاب الأوّل «تهافت التّهافت» اعتمد على البرهنة الايديولوجيّة كما يسمّيها هو نفسه في كتابه «نحن والتراث» ليصل الى فكرته الجوهرية القائلة: «بتّهافت الغزالي» عوض «تهافت الفلسفة» بطريقة ذكيّة وغير مباشرة، وأول شيء يعمد إليه للوصول إلى نتيجة تهافت الغزالي بشكل جديد وذكي، هو محاولة دحضه أولاً للفكرة القائلة أنّ «أبا حامد الغزالي ضرب الفلسفة ضربة واحدة لم تقم لها قائمة»<sup>(1)</sup>، وذلك باللّجوء:

أولاً: إلى محاولة إيقاظ العقل العربي من غفلته، مؤكّداً، أنّ العقليّة العربيّة لازالت مربوطة بالخرافات والإيمان بالأقاويل التي لا أساس لها من الصّحة، هذا الإيمان الرّائف، ضخم الأقاويل حول التّراث فجعل منه تراثاً مقدّساً، عاجزاً عن فهم نفسه وعن صنع أفق مستقبلي، وهذا الأمر، يدفعنا أولاً، الى تجاوز هذا «الصّواب الموروث» أو «الجهل المركّب» النّابع من جهل العارفين الذين يتلقّون الكلام من مصادر أجنبيّة لا يعلمون دوافعها ولا مصداقيتها، عدا كونها «موروث جماعي» يشكّل الحقيقة التي لا تناقش<sup>(2)</sup>، وبهذا ينبّه الجابري إلى هذا الموروث السيّئ، بغية مواجهة ما يسميه «الصّواب الموروث» بما يخرجه من

(1) راجع بشأن هذه المقولة؛ عبد العظيم الديب، العقل عند الغزالي، حولية كلية الشريعة والدراسات الاسلامية، العدد السادس، 1408هـ / 1988م، (ص444-450)

(2) محمد عابد الجابري «تهافت التّهافت: تأسيساً للرّوح العلميّة وتأسيساً لأخلاقيات الحوار» مركز دراسات الوحدة العربيّة، ط1، بيروت، أغسطس 1998، ص: 19 و 35

» توجه الجابري توجّهاً غير الذي اعتمده المستشرقون؛ من كون الفلسفة استمرت في المغرب مع «ابن باجة» و«ابن طفيل» و«ابن رشد». لأنّ هذا الطّرح في زعمه؛ فيه ثغرة لا يمكن لعاقل إنكارها، وهي أنّ الفلسفة إذا استمرت حقاً في المغرب، يعني أنّ الغزالي قضى عليها في المشرق، وبالتالي يبقى هذا الطّرح قاصراً في بعده، إذ يجعل من الغزالي أسطورة فلسفيّة.

داخله من خلال إبراز استمرار الفلسفة بعد الغزالي. ثانياً: وهكذا يقرّر الجابري، بأنّ الفلسفة استمرت بعد كتابة أبي حامد الغزالي لكتابه «تهافت الفلاسفة»، وهذا الأمر يجعلنا نثير السؤال الإجرائي التالي: ما المقصود باستمرار الفلسفة بعد الغزالي؟ هل يقصد به الجابري، انتصاراً لأبي حامد الغزالي أم العكس؟.

في هذا الإطار نجد الجابري يتوجّه توجّهاً آخر غير الذي اعتمده المستشرقون؛ من كون الفلسفة استمرت في المغرب مع «ابن باجة» و«ابن طفيل» و«ابن رشد». لأنّ هذا الطرح في زعمه؛ -الطرح المعتمد من طرف المستشرقين- فيه ثغرة لا يمكن لعامل إنكارها، وهي أنّ الفلسفة إذا استمرت حقاً في المغرب، يعني أنّ الغزالي قضى عليها في المشرق، وبالتالي يبقى هذا الطرح قاصراً في بعده، إذ يجعل من الغزالي أسطورة فلسفية<sup>(3)</sup>.

وهذا ما يجعل الجابري يتّجه وجهةً أخرى؛ إلى ما يسميه؛ بـ «المذهب الذي يجرج الصواب الموروث من داخله» وهو إثبات أنّ الفلسفة استمرت في المشرق حقاً، ومن داخل المذهب الأشعري نفسه، «المذهب الرّسمي للغزالي».

وهكذا رسم الجابري الصّورة الفنّية لاستمرار الفلسفة في المشرق، بزعامة كل من:

أ.- الشّهريستاني الأشعري الذي التزم الحياد والموضوعيّة في عرض آراء «الخصوم» ويقصد بها الجابري «الفلسفة السينوويّة»، فالشّهريستاني عرض فلسفة ابن سينا أربع مرّات؛ المرّة الأولى؛ في كتابه «الملل والنحل» في الباب الذي خصّصه لآراء الفلاسفة. وفي المرّة الثّانية وصف ابن سينا بـ «علامة القوم»، وفي المرّة الثّالثة عندما تصدّى لـ «مصارعة الفلاسفة» نازل فيه ابن سينا بأسلوب هادئ بدون تشنّج. وفي الرّابعة عمد إلى الجمع بين آراء ابن سينا وآراء المتكلّمين في كتابه «نهاية الإقدام في علم الكلام»<sup>(4)</sup>؛

ب. ومن بعد الشّهريستاني يأتي «الفخر الرّازي» الأشعري العقيدة بدوره، الذي اعتبره الجابري فيلسوفهم دون منازع، فهو لم يكتب ردّاً على الفلاسفة، وإنّما اكتفى بكتابة شرح نقدي لكتاب ابن سينا «الإشارات والتنبّهات»، حيث يرى الجابري؛ أنّه بدأ من حيث انتهى صاحب «نهاية الإقدام في علم الكلام» وإنّ الرّازي الذي عاصر ابن رشد «يسجل نقطة تحوّل في تاريخ العلاقة بين علم الكلام والفلسفة، النّقطة التي اندمج فيها الاثنان»<sup>(5)</sup>، أي أصبح علم الكلام فلسفةً، دون تمييز ملامحه، وهذا أمر آخر أراد الجابري من خلاله أن يصل إلى نتيجة «استمرار الفلسفة»، بعد كتابة الغزالي لكتابه: «تهافت الفلاسفة».

» اتجه الجابري إلى ما يسميه؛ بـ «المذهب الذي يجرج الصواب الموروث من داخله» وهو إثبات أنّ الفلسفة استمرت في المشرق حقاً، ومن داخل المذهب الأشعري نفسه، «المذهب الرّسمي للغزالي» بزعامة كل من الشّهريستاني والفخر الرّازي.



(3) تهافت التهافت، ص 20-21 و 36

(4) تهافت التهافت، نفس المرجع. ص 24-25

(5) تهافت التهافت، نفس المرجع. ص 26

## ماهي الرسالة

### التي يريد الجابري أن يوصلها لنا؟

من خلال ما سلف، أراد الجابري أن يقول أن «المفكرين الأشاعرة الذين خَلَفُوا الغزالي على ساحة علم الكلام والفلسفة، قد تجاهلوا الغزالي تماماً: لقد تمّ تجاهل ردود الغزالي على ابن سينا، وكُتِبَتْ ردود أخرى بديلة بعيداً عن الجدل والسفسطة، التي اتّسم بها كتاب الغزالي، وأكثر من ذلك؛ تجاهلت هذه الردود البديلة تكفير الغزالي للفلاسفة تجاهلاً تاماً»<sup>(6)</sup>، والمقصود بالردود هنا هي ردود الأشاعرة على الشيخ الرئيس «ابن سينا». فما المغزى من هذا الكلام؟ إنَّ الجابري كان يسعى إلى التحرر من «الصواب الموروث»، الذي يعني عنده؛ أنَّ الشائعة القائلة بأنَّ «الغزالي وجّه ضربة قاضية إلى الفلسفة لم تقم لها

يرى الجابري أن الفلسفة، هي التي وجّهت الضربة القاضية لابن حامد الغزالي، فاستمرت من داخل المذهب الأشعري، ولم يعد للغزالي أي أثر يذكر، وهكذا يقرّر أن كتاب «تهافت الفلاسفة» لم يكن له «ذلك الأثر الذي يعزى له، فلم تتردّد له أية أصدااء تستحقّ الذكر، ما عدا إدراجه في قائمة كتب الغزالي من طرف بعض مؤرّخي الطبقات الذين أرّخوا للغزالي كواحد من الشافعية»

قائمة» غير صحيحة، وإنّما الصحيح هو «أنَّ الفلسفة، هي التي وجّهت الضربة القاضية لابن حامد الغزالي» فاستمرت الفلسفة من داخل المذهب الأشعري، ولم يعد للغزالي أي أثر يذكر، أي استمرارية لتراثه الفلسفي، وهكذا يقرّر الجابري في آخر المطاف أن كتاب «تهافت الفلاسفة» لم يكن له «ذلك الأثر الذي يعزى له، فلم تتردّد له أية أصدااء تستحقّ الذكر، ما عدا إدراجه في قائمة كتب الغزالي من طرف بعض مؤرّخي الطبقات الذين أرّخوا للغزالي كواحد من الشافعية»<sup>(7)</sup>.

«الضربة القاضية الحقيقية» -حسب زعم الجابري- التي وجّهها للغزالي، هي-في نظرنا- ضربة أسوأ من ضربة «الصواب الموروث». وبما أنَّ الغزالي تمّ الكشف عن تهافته بعد «البرهنة الايديولوجية الجابرية»<sup>(8)</sup> الهادفة إلى القول بطريقة غير مباشرة: إنَّ الغزالي هدّم نفسه بنفسه، وتمّ تجاوزه من طرف بني جلدته الأشاعرة دون أي اكتراث بـ «تهافته»، فإنَّ الجابري سيتجاوز بدوره الغزالي دون أن يجعل له مكانة تذكر في كتابه الشهير «نحن والتراث» عدا المرور فوق إنتاجه بسطر أو فقرة صغيرة إذ كان في حاجة إليها ليبني فكرته المركزية المتمثلة المعالم في «القطبية الرشدية»<sup>(9)</sup>.

فما هي «القطبية الرشدية»؟ وماذا نعني بها؟ هذا ما سنتعرّف عليه في الحلقة الثانية من هذا البحث.

(6) تهافت التهافت، نفس المرجع. ص 21

(7) تهافت التهافت، نفس المرجع ص 21

(8) مصطلح استعمله الجابري في كتابه نحن والتراث. ويعني بها نوع من ممارسة الديماغوجية لتمرير فكرة ما. ونحن استعملنا مصطلحه بنفس ما يعنيه الجابري، بحيث نرى بدورنا انه يمارس الديماغوجية / البرهنة الايديولوجية للوصول إلى فكرة مركزية عنده سنبينها في هذه الورقة لاحقاً.

(9) محمد عابد الجابري «نحن والتراث؛ قراءة معاصرة لتراثنا الفلسفي»، المركز الثقافي العربي، ط6 / 1993.

الصفحات التي ذكر فيها الغزالي -ليس كدراسة خاصة- وإنما كقنطرة فقط للعبور إلى الضفة المرجوة، «المدينة الفاضلة الرشدية» هي: (63-65 و 67 و 88 و 100 و 117 و 118-221 و 224 و 225 و 232 و 235 و 239 و 257)



المجلة  
الإصلاح



الهادي بريك  
«باحث وكاتب - ألمانيا»  
brikhed1@yahoo.de



## من هو محمد صلى الله عليه وسلم؟ ( قراءة في خلقه وخصائصه وسيرته ) الحلقة 12 : خلاصة مقتضبة لسيرته العامة



### كلمتان قبل البدء

الكلمة الأولى : لا تعرف البشرية - وسيظل هذا حتى يوم البعث - كل شيء عن حياة إنسان عدا عن محمد ﷺ. إذ هو الوحيد الذي كشفت كل جوانب حياته - بما فيها الخاصة جدا - بعضها في القرآن الكريم وبعضها في السنة وما نقل عنه أصحابه. بل الأعجب من ذلك أن سيرته القلبية الداخلية نفسها معلومة. إذ يحدثنا ربّه سبحانه عن حركات قلبه وخلجات فؤاده إذ يحب شيئا أو يكره شيئا (قصة زينب مع زيد مثلا). وما كان ذلك سوى لأنه رسول الله الخاتم إلى البشرية جمعاء قاطبة حتى يوم البعث، ومن حقّ الناس أن يعرفوا كل شيء عن نبيهم الخاتم.

الكلمة الثانية : قلب الله سبحانه حياته منذ ولادته حتى لقي ربّه على كل الوجوه التي يمكن أن يمرّ بها إنسان حتى يوم البعث. إذ عاش فقيرا ليكون للفقير أسوة، وعاش غنياً ليكون للغني أسوة، وعاش حاكما ليكون للحاكم أسوة، وعاش معارضا ليكون للمعارض أسوة، وعاش أعزب ليكون للأعزب أسوة، وعاش زوجا ليكون للزوج أسوة، وعاش أبا ليكون للأب أسوة، وعاش حزينا ليكون للحزين أسوة، وعاش فرحا ليكون للفرحان أسوة، وعاش مريضا ليكون للمريض أسوة، وعاش معافي ليكون للمعافي أسوة، وعاش في موطنه ليكون للمواطن أسوة، وعاش مغتربا مبعدا ليكون للمغترب أسوة، وغير ذلك من كل صورة يمكن



أن يعيشها إنسان في الأرض حتى يوم القيامة، أن يقول إنسان يوم القيامة محاججا ربّه سبحانه: لم أجد لي أسوة في الوضع الذي كنت فيه يوم كذا في مكان كذا.

### من حياته الشخصية والعائلية

ولد يتيما ﷺ لأنه سيستأمن على أمّة فيها أيتام وضعفة وأرامل ومدقعون، ومن ذا يبذل لهم العطف ويحرّض عليه من موقع المجربّ الذي ذاق حياة اليتيم. بل حرم من دفء الأمومة وهو طفل يافع صغير لينغرس حبّ المستضعفين في فؤاده. ما إن شبّ حتى شمرّ على ساعديه ليقطف عيشه

بكدّ يمينه، إذ عمل راعيا وتاجرا. ومن ذا يمتلئ فؤاده مرّة أخرى وهو في كهولة شبابه ببذل اللحم والصبر وشظف العيش في معركة الحياة الطويلة القاسية، وليختبر الناس عن قرب ويعرف حرصهم على الدنيا عبادة أو تعفّفا. سيما أنّ عمّه الذي كفله بعد جده كان يصطحبه معه إلى بعض رحلات الشام. ولينشأ على خلق الأمانة علاقة مع أموال خديجة. إذ سيستأمن على دماء الناس وأعراضهم وليس على أموالهم فحسب. تزوّج سيّدة تكبره بسنوات كثيرات وهي من بعد ذلك أرملة، وهي التي أرادت زوجا. وهي رسالة إلى شباب المسلمين من الرجال والنساء أنّ العبرة بجمال الخلق لا بجمال الخلق، وأنّ الزواج شركة معنويّة فكريّة روحية رأسمالها ميثاق غليظ لا صفقة تجاريّة وودّ ورحمة وسكن متبادل ولباس متعاوض وليس قهرا من قوويّ لضعيف. وظلّ معها حتى توفّاها الله سبحانه وأنجب منها الولد. فلما ماتت تزوّج ما أحلّ الله له سبحانه. فكانت كلّ زيجاته مشاريع حضاريّة عظميّة إمّا لتوطيد علاقة حميميّة مع رجال الإسلام الأوائل الذين حملوا معه همّ الدّعوة من مثل أبي بكر وعمر في عائشة وحفصة. أو لإحتضان نساء قرشيّات شريّفات كريمات إستشهد أزواجهن أو إرتدوا ولم يبق لهنّ بعد الله في مجتمع ينكّل بقيم الكرامة والشّهامة عدا محمد ﷺ. أو لبناء علاقات أمن وسلم تفضي إلى الحوار مع المخالفين في الدّين، من مثل ما وقع مع زعيم قريش أبي سفيان قبل إسلامه أو مع زعيم بني قريظة أو مع زعيم بني المصطلق. أو هديّة من زعيم تابع للرومان يريد شراء ذمّته فكان رده ﷺ إكرام هديته (الأمّ مارية القبطيّة) التي أنجبت له إبراهيم. وبالخلاصة فلم يتزوّج من حيث أنّه إنسان ككلّ إنسان عاطفة غريزيّة عدا خديجة. ثمّ وظّف كلّ زيجاته لخدمة دينه ودعوته بسطا لعريّ التّعارف والأمن والسّلم بين الناس حتى وهم مختلفون ديننا ولونا ولسانا. حتى هذا البيت الأطهر لم تسلم منه المشكلات التي سجّل منها القرآن الكريم مشهدين لتتعلّم كيف لا نهاب المشكلات أوّلا، ثمّ لتتعلّم كيف نعالجها بخلق محمد ﷺ وليس بالعنجهية العربيّة المستكبرة. كما زوّج بناته لبعض أصحابه الذين أسلموا مبكّرا وهدى الله على أيديهم في مكّة الذين هدى. ولحكمة نعلم بعضها لم يشأ الله سبحانه أن يعمرّ له الولد الذّكر حتى لا يرتاب الناس من بعده أنّ النبوة ميراث مكتوب أو أنّ السّلطة السّياسيّة مثل ذلك. ولتظلّ البركة كلّ البركة في إقتفاء خلقه وأثره. وليس في التمسّح على أعتاب رحمه إلّا إحسانا وتوقيرا. فرض الله له خمس الثروة التي كانت جبالا من المال في السّنوات الأخيرة من حياته ولكنّه أثر أن يعيش كما كان قبل ذلك: ليس فقيرا إذ الفقير هو من لا يجد.

» لا تعرف البشرية - وسيظلّ هذا حتى يوم البعث - كلّ شيء عن حياة إنسان عدا عن محمد ﷺ. إذ هو الوحيد الذي كشفت كلّ جوانب حياته - بما فيها الخاصّة جدّا - بعضها في القرآن الكريم وبعضها في السنّة وما نقل عنه أصحابه.



إنما رمزا للعفاف والمروءة والقناعة. حتى كان ذلك سببا لمشكلة عائليّة سجّلها الكتاب الخالد الذي جاء به ﷺ.

كان يربط الحجر على بطنه تخفيفا من وطأة الجوع ولو شاء لأكل مثل ما يأكل الناس. ولكن حبسه يقينه غير المحدود بنعيم الجنّة بل بربضها الأكبر وكوثرها الأعظم. وظلّ كذلك حتى مات ودرعه مرهونة عند مواطن يهوديّ في دولته في بعض شعير لأهله أو لفقراء المسلمين. نبّي ركل الدّنيا ركلا قاسيا إذ عرضت عليه النّساء اللّاتي كان لهنّ

حضنا دافئا يضمّد جراحات الزّمان فيهنّ. وإذ عرضت عليه الأموال حتى إنّه عاد إلى بيته من بعد نفاذ كلّ أموال الطّائف التي كانت قبل سويّعات تملأ الوهاد والنّجاد. عاد بعد أن أشبع النّاس يطوي طيا والجوع يقرصه بنابه من كلّ صوب. عاد لعلّه يجد في بيته ما يسدّ به الرّمق، فلمّا لم يجد صبر على جوعه

### من سيرة دعوته

ظلّ يدعو قومه سرّا ليس خوفا على نفسه ولكن قراءة صحيحة لموازنات قبليّة منخرمة لعبادة الأصنام ومراعاة للحمة قرشيّة هو الأحرص عليها، ليعلمنا أنّ وحدة صفّ النّاس شيء مقدّس. فلا يصرم حتى بأثر من دعوة دينيّة صحيحة. وليعلمنا أنّ الإسلام شجرة تسقى بماء التّحرير. فإذا سقيت بماء الإكراه وسوء التّقدير ماتت. هاجر إلى الطّائف لعلّه يظفر بقلوب واعية فصّدّ صدّا ليس من عادة العرب فعله. فراح ينادي ربّه سبحانه أنّه إذا لم يكن هو عليه غاضبا فهو لا يبالي بكيد العبيد. وهجر أصحابه مرّتين إلى الحبشة. ليعلمنا أنّ الحرّية أعلى من تراب الوطن إذا أبى تراب الوطن توفير الدّفء لبنيه وبناته. لم يتردّد في الإنضمام إلى قريش عندما تكافل أهل الرّأي فيها على نصرة المظلوم فيما عرف بحلف الفضول. ليعلمنا أنّ قيمة الإنسان بغضّ النّظر عن دينه ولونه وعرقه أعلى من كلّ قيمة. وأنّ الإسلام لا أرض له عدا أرض الحرّية ولا سماء له عدا سماء التّعارف بين النّاس على أساس الإحترام المتبادل والإقرار بحقّ الاختلاف. ولم يتردّد في حقن دماء قريش إذ أشرعوا أسيافهم تنكيلا ببعضهم بعضا عصبية عربيّة أيهم يضع الحجر الأسود في مكانه إعادة لبناء الكعبة التي جرفت بعضها السيول. حرص على ذلك ليعلمنا أنّ تفريق النّاس حتى وهم على الكفر البواح ليس إيما. بل هو حماقة فجّة. وأنّ تقديم العون لهم والتّعاون معهم على الخير هو الإيمان الذي يليق بالدّين الخاتم. وليعلمنا أنّ رموز الدّين ليست للإستغلال الإيديولوجي والتّوظيف الدّيني، فهي مصانعة لا يعبت بها حتى يظلّ قدرها في الصّدور كبيرا.

كما حرص على دعوة النّاس تحت شعار (خلّوا بيني وبين النّاس) فلمّا غلب الكبر عليهم وضعوه ومن معه في حصار شامل إقتصادي وإجتماعيا ليظلّ ومن معه شهورا طويلة لعلّهم يهلكون جوعا. ولكن بالصّبر الجميل حوّل الله سبحانه محنة شعب أبي طالب إلى منحة. إذ تداعى القرشيون أنفسهم إلى تمزيق صحيفة المقاطعة والحصار. فعل ذلك ليعلمنا أنّ الدّعوة التي يصبر دونها صاحبها دون ملل ولا كلل ولا تأفّف ولا ضجر، تغدق أملا كما تغدق الشّجرة ثمرا. فعل ذلك ليعلمنا أنّ الحرّية أعلى من

» علمنا ﷺ أنّ قيمة الإنسان بغضّ النّظر عن دينه ولونه وعرقه أعلى من كلّ قيمة. وأنّ الإسلام لا أرض له عدا أرض الحرّية ولا سماء له عدا سماء التّعارف بين النّاس على أساس الإحترام المتبادل والإقرار بحقّ الاختلاف

الخبز إذا كان لا بدّ من التّضحية بأحدهما. الحرّية توفّر الخبز الكريم ولكنّ الخبز بذلّة لا يوفّر حرّية بل عبودية وإسترقاقا.

ثمّ هاجر إلى المدينة تاركا خلفه وطنه الذي فيه ولد ونشأ وتربّى وترعرع. خرج من موطنه الذي إحتضنه خمسين سنة كاملة وعينه تذرف دمعات حرّية. ليعلمنا أنّ حبّ الأوطان إيمان من قحّ الإيمان. وأنّ الإخراج منها عسفا هو الموت المعنويّ. ولكن تظلّ الحرّية أعلى

تراب الأوطان مرّات ومرّات. ذرفت عيناه الدّمعات الحرّية ليعلمنا أنّ التدين لا يخاصم العواطف البشرية ولا يضيق بالغرائر الإنسانية إذ جاء ليهذبها ويرقيها وليس لينفيها ويتوجّس بها

### من حياته السياسية

شيّد مع القبائل الإسرائيليّة في المدينة منذ قدومه إليها دستورا كتابيا عظيما يضمن الحرّيات الخاصّة فردية وعامة في كنف الإحترام المتبادل وبسقف عتيد عنوانه : التّكافل الكامل بين كلّ مكونات المدينة لأجل حماية الأمن العامّ وضمان السّلم الإجماعيّ وصدّ أيّ عدوان محتمل من خارج المدينة. هو دستور تستوحي منه الدساتير الفدرالية المعاصرة كثيرا من قيمها. لولا أنّ النّاس يجهلون أو يجحدون. فما إن بادرت تلك الطّوائف الإسرائيليّة واحدة في إثر الأخرى إلى خيانة الدّستور الذي وقّعت به بأنامل سادتها حتّى لقنهم ﷺ درسا بليغا تعلمنا منه أنّ الوطن ليس خرقة بالية ندوسها متى نشاء. وأنّ الدّستور ليس هينا نركله متى نشاء. وأنّ إرادة النّاس من إرادة الله وأنّ إرادة الله لا تقهر. وظلّ يكافح ﷺ لأجل أمن المدينة ومن فيها بدون تمييز بينهم على أساس دينيّ أو عرقيّ أو لسانيّ. فخاض كلّ معركة فرضت عليه سواء من الدّولة العربيّة التي هجرته قبل سنوات قهرا. أو من الوجود الإسرائيليّ الذي لجأ إلى الخيانات المتتالية. أو من الوجود الرّومانيّ المتاخم متوجّسا من حضارة جديدة بدأت تينع ثمراتها فتغري المفسدين في الأرض. ظلّ يؤمّن المدينة بمن فيها بعشرات السّرايا الإستعلامية ليعلمنا أنّ الأمن هو رأسمال الحياة. وأنّ الأرض ملأى عقارب وحيّات وذئابا. وما على المؤمن عدا أخذ الحذر. فلا يكون خبا غدارا ولا يترك للخبّ الخوان فرصة لخيانته. ظلّ يعالج كلّ معركة فرضت عليه فكان بشرا ينتصر حيناً وينهزم حيناً آخر. وظلّ مع ذلك يتوسّل إلى المصالحات ما أمكنه ذلك. إذ بنى مصالحة هي الكبرى مع قريش في الحديبية ورضخ لشروط مجحفة أملا في أن يعود الأمن والسّلم إلى النّاس، إذ أنّ الدّين الذي جاء به لا ينمو وينداح إلّا في مناخ آمن. كما آخى بين المسلمين في المدينة مؤاخاة عملية حقيقيّة ليعلمنا أنّ تقديم الصّف الداخليّ في معالجات التّحديات أولويّة الأولويّات. فإذا شيّد الأمن الإجماعيّ بين النّاس وهيمن العدل بينهم نجحت الدّولة في التّقدّم. وشيّد المسجد الأوّل البسيط بطوب وجريد ليعلمنا أنّ الإسلام هو الصّلاة. وأنّ المسلمين هم صلاة الجماعة التي تجمعهم مرّة واحدة كلّ أسبوع على الأقلّ. وأنّ الإسلام منزوع الدّسم الإجماعيّ والتكافليّ هو كذب مكذوب ونفاق أعور. فلمّا فتح الله عليه مكّة أعلن العفو

» خرج ﷺ من موطنه وعينه  
تذرف دمعات حرّية. ليعلمنا أنّ  
حبّ الأوطان إيمان من قحّ الإيمان.  
وأنّ الإخراج منها عسفا هو الموت  
المعنويّ. ولكن تظلّ الحرّية أعلى  
« من تراب الأوطان مرّات ومرّات

النَّبويّ العامّ ليعلمنا أنّ الكبير كبير بسعة صدره وأفقه الأخلاقيّ الواسع، وليس بالانتقام الأعمى. وختم حياته بخطبة حجة الوداع التي أودع فيها كليات الكتاب العظيم الذي جاء به. ولتكون أعظم وثيقة بعد القرآن الكريم على وحيها يشيّد المسلمون حضارتهم.

كما كان وفيًا لعهوده ومواريثه حتى في أشدّ الحالات عسرا. بمثل ما وقع في الحديبية نفسها مع أبي جندل وبعد ذلك مع أبي بصير ليعلمنا أنّ الإسلام قلبه الوفاء بالعهد حتى مع الكافر ابن الكافر ما كان مسالما، فإذا خان المؤمن عهده بأيّ دعوى كانت فلا حظّ له من إيمانه

» لم يتردد ﷺ منذ البداية في إعلان القيم التي جاء بها حيال الإنسان والمرأة نبذا لكلّ تمييز درج عليه المشركون ومردت عليه العرب. فعمل على تحرير العبيد محرّضا صحابته الموسرين على ذلك. وظلّ يقاوم دون تلك القيم العظمى حتى بنى بها أمة عظمت



إلا كمثل حظّ المنافق.

### من سيرته مع المرأة والإنسان

لم يتردد منذ البداية في إعلان القيم التي جاء بها حيال الإنسان والمرأة نبذا لكلّ تمييز درج عليه المشركون ومردت عليه العرب. فعمل على تحرير العبيد محرّضا صحابته الموسرين على ذلك. وجنّ جنون العرب إذ قال لهم أنّ الناس سواسية كأسنان المشط وأنه لا فضل لعربيّ على أعجميّ ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى. كيف يسوّي بينهم وبين عبيدهم وإمائهم؟ وظلّ يقاوم دون تلك القيم العظمى حتى بنى بها أمة عظمت. غضب إذ عيّر أبوذر بلالا بسواد لونه وفرض عليه القصاص. وجاء بتحريم التبني لتقوم الأسر على علاقات صحيحة ونسب صحيح. وحضّ على كفالة اليتيم حتى جعله مثله تقريبا في الأجر يوم القيامة وعلى الأرملة والمقهور. وعدّ ذلك عبادة جليلة.

وبرزت من حجره نساء عالمات قائدات زعيمات بعد أن كانت المرأة في العرب سقط متاع لا تحجب عن الميراث فحسب بل تكون هي متاعا يورث مثل أيّ متاع أو حيوان. وخلف للإنسانية نساء عظيمات منهنّ عائشة الفقيهة ومنهنّ أمّ هانئ السياسية ومنهنّ أمّ سلمة صاحبة الرأى الرّاجح ومنهنّ المجاهدات دون تحرير الأوطان من مثل أسماء بنت الصّديق أمّ عبد الله الثّائر. كما علّم النّاس فنون التّربية في الأسرة وفي مختلف البيئات. فكان يرحم الولد الصّغير حتى وهو في صلّاته ساجدا أو راكعا. ويلعب مع عمير ويحزن لحزنه إذ فقد عصفوره النّغير. ويحاور الرّاغب في الزّنى بعقل ورحمة معا ويمهل مثله لهفة عليهمّ فيما عرف بحديث الجمل الشّارد.

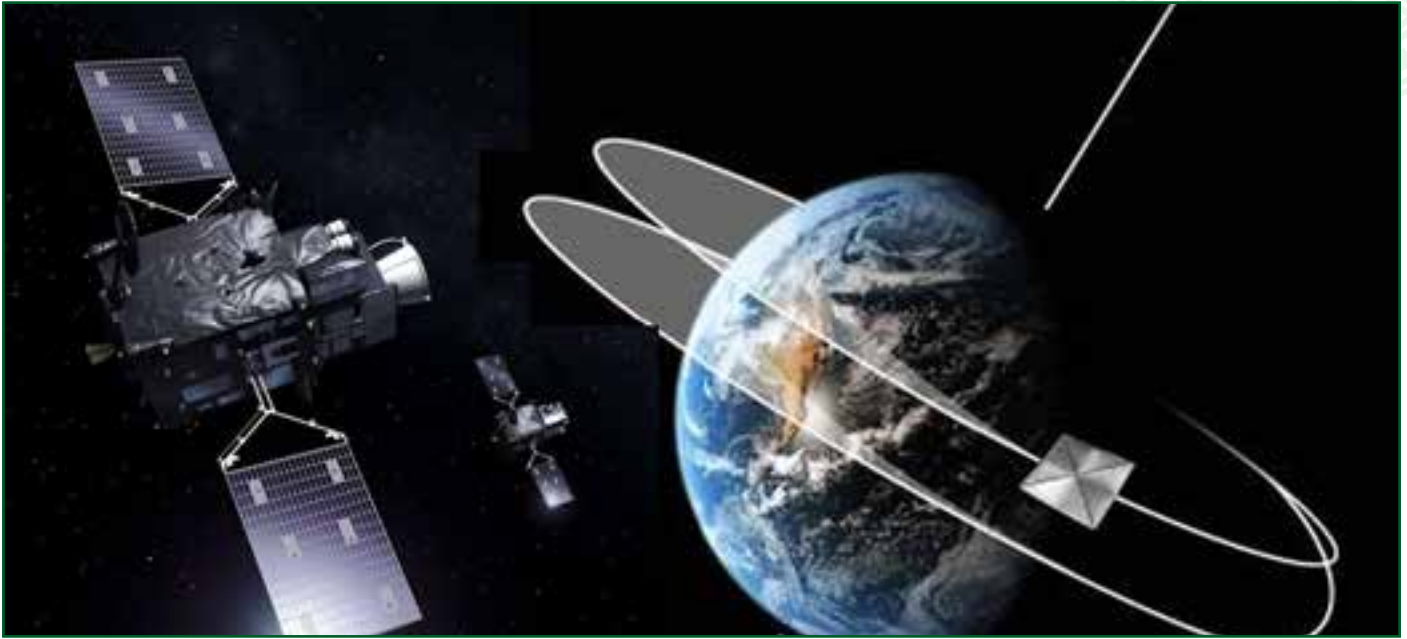
كما حضّ على العلم والمعرفة فجعل أحدهم يتعلّم السريالية. وجعل ثمن إطلاق سراح أسرى بدر تعليم أصحابه القراءة والكتابة. وحرص على كتابة مواريثه المغلّظة وهو الأميّ. وبشّر طالب العلم بفضل يجعل الله به حيتان البحر تسبح له. وعدّ مداده مثل دماء الشّهداء دون تحرير أوطانهم. وسلّم تسليمًا كثيرا طيبا عظيما مباركا فيه. وشفّعه الله فينا أجمعين. وحشرنا سبحانه على كوثره العظيم. وسقانا من يديه الكريمتين شربة ماء لا نظما بعدها حتى ندخل الجنّة لعلنا نكون في ربضه العظيم ندماء وجيرانا.



أ.د. فوزي أحمد عبدالسلام  
«أستاذ ديناميكا الفضاء بجامعة القاهرة»  
f.a.abdelsalam@gmail.com



## تطور نظريات الحركة الحلقة السادسة: إستقرار المدارات الثابتة مع الأرض



### مستوي لابلاس «المستوي الثابت»

اكتشف بيير سيمون لابلاس (1749-1827) مستوى متوسط يترنح حول محوره المستوي المداري اللحظي للقمر الصناعي، سمي فيما بعد بمستوي لابلاس<sup>(1)</sup>. يقع محور مستوي لابلاس في المستوي الذي يحتوي كلاً من (أ) محور دوران الأرض حول نفسها، و (ب) المحور العمودي على مدار دوران الأرض حول الشمس، وأكثر تحديداً يقع بينهما. ينشأ مستوي لابلاس بسبب دوران مدار القمر الصناعي حول محور دوران الأرض الناشئ عن عدم إنتظام مجال جاذبية الأرض، بينما تميل الإقلاقات الناجمة عن الشمس إلى التسبب في دوران القمر الصناعي حول العمودي على مدار الأرض حول الشمس. ينتج عن التأثيرين اللذين يعملان معاً موضعاً وسيطاً للمحور المرجعي لمدار القمر الصناعي<sup>(2)</sup>. يستقر المدار الثابت بالنسبة للأرض إذا وقع العمودي عليه في مستوي لابلاس، حيث يقع المدار بين عزوم جاذبيات مختلفة أرضية وقمرية وشمسية، والتي تعمل على استقرار المدار ذهاباً وإياباً بين نقاط الاستقرار الناتجة عن هذه العزوم.

(1) Scott Tremaine, Jihad Touma, and Fathi Namouni (2009). «Satellite dynamics on the Laplace surface», The Astronomical Journal 137, 3706–3717.

(2) Jump up to:<sup>a b</sup> See P. Kenneth Seidelmann (ed.) (1992), Explanatory Supplement to the Astronomical Almanac, University Science Books, Sausalito (Ca), pages 327– 9

## إستقرار المدار

الاستقرار لا يعني الثبات المطلق وعدم الحركة، فهذا غير موجود أصلاً في الكون، فالكل في حالة حركة مستمرة، لكن الاستقرار يعني بشكل غير تقني ثبات المنظومة الديناميكية وعدم انهيارها. ولا يوجد تعريف واضح لماهية المدار المستقر، إذا كانت كل المدارات تتحلل في النهاية، فهل يوجد ما يسمّى بالمدار المستقر؟ هل يمكن لجاذبية ما أن توفر قوة كافية لإبقاء جسم ما في مدار حول جسم آخر؟ كل هذه الأسئلة وغيرها كثير يتعرض إليها الباحثون عند دراسة إستقرار المدارات بشكل عام وإستقرار المدارات الثابتة مع الأرض بشكل خاص.

» الاستقرار لا يعني الثبات المطلق وعدم الحركة، فهذا غير موجود أصلاً في الكون، فالكل في حالة حركة مستمرة، لكن الاستقرار يعني بشكل غير تقني ثبات المنظومة الديناميكية وعدم انهيارها. ولا يوجد تعريف واضح لماهية المدار المستقر، إذا كانت كل المدارات تتحلل في النهاية. «

يترنح مدار القمر الصناعي الثابت بالنسبة إلى الأرض تقريباً حول المحور العمودي على مستوى لابلاس بفترة حوالي 53 عاماً، ويصل ميله إلى 15 درجة بعد 26.5 عاماً قبل أن يعود إلى خط الاستواء. إذا تم وضع مثل هذا القمر الصناعي في البداية في هذا المستوى، فسيتم إصلاحه في المتوسط (المدار «الحقيقي»، بسبب انحدار العقد القمرية، والذي لا يؤخذ في الاعتبار في النظريات التحليلية، سيكون له في الواقع الميل المحدود بين 6 و 8.5 درجة، والعقدة الصاعدة بين  $\pm 10^\circ$ ). لتصحيح هذه الاضطرابات في المدار يلزم استخدام مناورات لتثبيت موقع المدار أو ما يسمّى بحفظ المحطة، وتقدر بتغير في السرعة (Delta-V) يساوي 50 متر/ ثانية كل عام.

ثمة تأثير آخر يجب أخذه في الاعتبار وهو تراجع العقدة الصاعدة على خطوط الطول، وسببه عدم انتظام جهد الأرض. وتؤثر أيضاً كلاً من الرياح الشمسية والضغط الإشعاعي بقوى صغيرة على الأقمار الصناعية مما يؤدي لتغيرات بسيطة في مداراتها. وفي غياب أية مهمات صيانة من الأرض، أو استهلاك وقود الدفع (المستخدم في صواريخ التحكم) لتثبيت مكان القمر الصناعي، فإن ذلك يحدّد العمر الافتراضي للقمر الصناعي، لأنّه في حالة الاستهلاك الكامل للوقود سينحرف القمر عن مكانه ولا توجد وسيلة لتصحيح الخطأ، فيصبح - في أغلب الأحوال - بلا فائدة حتى ولو كانت المعدات في حالة جيّدة. وحينئذ يكون قد فقد التواصل مع المحطات الأرضية المصمّمة لتلقي الإشارات منه.

## الحركة بين نقاط التوازن

لمثل هذه المدارات يوجد نقطتي توازن مستقرتين عند خطّي طول  $75.3^\circ$  شرق و  $104.7^\circ$  غرب، ونقطتي توازن غير مستقرتين عند خطّي طول  $165.3^\circ$  شرق و  $14.7^\circ$  غرب. وبالتالي فإنّ المدار الذي تقع نقطته الصاعدة بين نقطتي توازن سينتأثر بعجلة «تسارع» صغيرة (بدون أيّ مؤثر خارجي غير قوى الجاذبية) نحو نقطة التوازن المستقر، ممّا يتسبّب بتغيّر مستمر في خطّ الطول، وتصحيح هذا التأثير

يلزم مناورات للتحكم في المدار بتغيير في السرعة المدارية بحد أقصى 2 متر/ ثانية كل عام، اعتماداً على خط الطول المطلوب.

### تأخر الاتصالات

نظراً لارتفاع الشاهق في المدار الثابت بالنسبة للأرض يحدث تأخر ملحوظ في الاتصالات - يقدر بحوالي ربع ثانية خلال رحلة الشعاع من محطة الإرسال الأرضية إلى القمر ورجوعاً إلى المحطة الأرضية مرة أخرى ونصف ثانية عند نقل الإشارة من محطة أرضية إلى أخرى أرضية ثم عودتها إلى الأولى مجدداً.

نظراً لارتفاع الشاهق في المدار الثابت بالنسبة للأرض يحدث تأخر ملحوظ في الاتصالات - يقدر بحوالي ربع ثانية خلال رحلة الشعاع من محطة الإرسال الأرضية إلى القمر ورجوعاً إلى المحطة الأرضية مرة أخرى وحوالي نصف ثانية عند نقل الإشارة من محطة أرضية إلى أخرى أرضية ثم عودتها إلى الأولى مجدداً.

على سبيل المثال؛ بالنسبة للمحطات الأرضية بين

دائرتي عرض  $45^\circ$  شمالاً وجنوباً، وعلى نفس خط طول القمر الصناعي، فإن الوقت اللازم لتسافر الإشارة من محطة أرضية إلى القمر ثم رجوعاً إلى المحطة الأرضية، يمكن حسابه باستخدام بعض القوانين البسيطة في حساب المثلثات. هذا التأخير يسبب مشاكل في التطبيقات الحساسة للتأخير مثل الاتصالات الصوتية وألعاب الكمبيوتر المباشرة على الإنترنت.

ونظراً لأن هذه المدارات تكون فوق خط الإستواء مباشرةً، فإنها تبدو في أقصى ارتفاع لها من خطوط العرض القريبة من الإستواء، لكنها تقترب من الأفق كلما ابتعدنا عن خط الإستواء وبالتالي تصبح كفاءة الاتصالات صعبة وربما مستحيلة بسبب عوامل عديدة مثل: انحراف الأشعة عبر الغلاف الجوي، الانبعاثات الحرارية للأرض، الموانع المادية عبر خط النظر (الجبال، المباني المرتفعة)، وانعكاس الإشارات عن سطح الأرض أو المباني. وفي دوائر العرض الأكبر من  $81^\circ$  تختفي تلك الأقمار تحت خط الأفق، وبالتالي لا ترى نهائياً<sup>(3)</sup>.

### فض المنازعات حول المدار

تتواجد جميع الأقمار الصناعية العاملة في المدار الثابت بالنسبة للأرض في حلقة واحدة فوق خط الإستواء تماماً، وضرورة الفصل بين هذه الأقمار لتجنب تداخل الموجات العاملة تعني أنه يوجد عدد محدود من المواقع المتاحة في المدار، وبالتالي لا يمكن تشغيل إلا عدد محدود من الأقمار في مثل هذه المدارات. هذه القيود أدت إلى نشأة صراعات بين الدول المختلفة الراغبة في إمتلاك أقمار صناعية في مدارات ثابتة بالنسبة للأرض في نفس خط الطول وبنفس الترددات (الدول التي توجد على دوائر عرض مختلفة

(3) Scott Tremaine, Jihad Touma, and Fathi Namouni (2009). «Satellite dynamics on the Laplace surface», The Astronomical Journal 137, 3706–3717.

ولكن نفس خطّ الطّول). هذه النّزاعات يتمّ حلّها عبر آليّة التّقسيم الخاصّة بالاتحاد الدّولي للاتصالات<sup>(4)</sup>. في إعلان بوجوتا الصّادر عام 1976، أعلنت ثمانية دول واقعة على خطّ الإستواء سيادتها على المدارات الثابتة بالنسبة للأرض الواقعة فوق أراضيها على اعتبار أنها ثروات طبيعية، ولما كان الحق لا بد له من قوة تحميه فإن ذلك الإعلان لم يلق اعتراف دولي<sup>(5)</sup> ويوجد حالياً معاهدات دولية لتقسيم الأماكن في المدار، وتقسيم الترددات كذلك. وبالنسبة للأقمار التي خرجت من الخدمة في نهاية فترة العمر المحددة لها (بمعنى انتهاء وقود الدفع الذي يصحح مسارها) إما أن يتواصل استخدامها في مداراتها الجديدة المائلة أو يتم دفعها بعيداً عن المدار الثابت بالنسبة للأرض

» تتواجد جميع الأقمار الصّناعيّة العاملة في المدار الثابت بالنسبة للأرض في حلقة واحدة فوق خطّ الإستواء تماماً، وضرورة الفصل بين هذه الأقمار لتجنب تداخل الموجات العاملة تعني أنه يوجد عدد محدود من المواقع المتاحة في المدار، وبالتالي لا يمكن تشغيل إلا عدد محدود من الأقمار في مثل هذه المدارات.

إلى مدار أعلى منه يطلق عليه «المقبرة» أو «مدار المهملات».

(4) Jump up to:<sup>a b</sup> See P. Kenneth Seidelmann (ed.) (1992), Explanatory Supplement to the Astronomical Almanac, University Science Books, Sausalito (Ca), pages 327- 9.

(5) Oduntan, Gbenga. «The Never Ending Dispute: Legal Theories on the Spatial Demarcation Boundary Plane between Airspace and Outer Space» (PDF). Hertfordshire Law Journal, 1(2), p. 75.







## ريان

- جمع القلوب وأجحظ الأبصار  
في الجب حل. ولا حلول تحوله  
ماذا فعلت بأمة مكلومة؟  
جاءوا إليك ليخرجوك مكرما  
ما نام قوم إذ رأوك تحركت  
والأكل مز لا مذاق يزينه  
سألت عليك وسائل الإعلام مذ  
الناس حولك ركعا بل سجدا  
وتزاحمت كلمات حزني في فمي  
لا لوم لي فيمن وثقت لحالهم  
ولعلني عند الشدائد ملهم  
لا مدح لي فيما قرأت مزكيا  
أما الشعوب فقد بكتك محبة  
وكذاك ننجي قالها رحماننا  
رحل الريان ومات شعري بعده  
رباه إني قد بكيته لحاله
- ريان هز بسقطة مليارا  
عما نراه ويطفئ الأغيار  
حتى تركت ببالنا أسرارا  
والكل حج ليذكر الأخطار  
أركان جسمك لاحظوك مرارا  
والعقل جن فلم نجد أفكارا  
بلغ المسامع ليلة ونهارا  
يدعون ربا علما غفارا  
واهتز قلبي والعيون حيارى  
لكنني فيما وثقت أمارى  
من فضل ربي لا أكاد أجارى  
للناس حس لا أقول شعارا  
والله يقضي ما يشاء وخار  
فارحم بفضلك من تراه توارى  
وإلى هنا أضحي القريض مزارا  
فاجعل رجائي أن أراه جهارا



## المجاهد محمد الدغباي

قبل 98 سنة، وفي صبيحة غرة مارس 1924، اجتمع حشد كبير من سكان الحامة في ساحة سوق البلدة ينتظرون قدوم البطل ليزقوه شهيدا للوطن. اقتاده الجنود مكبل اليدين واتجهوا به نحو المنصة، خيم السكون على المكان، تقدّم الضابط الفرنسي نحو السجين ذي الأربعين سنة بعاصبة ليضعها على عينيه لكنه رفضها بشدة متوجّها بكلمات ثابتة نحو زوجة أبيه التي كانت بمثابة أمّه قائلا: «لا تخشي عليّ يا أمّي، فإنّي لا أخاف رصاص الأعداء، ولا أجزع من الموت في سبيل عزة وطني..الله أكبر ولله الحمد..» كلمات نزلت كالصاعقة على آذان الجنود الذي اصطفوا ليمطروا جسده بالرصاص، لكنها كانت بردا وسلاما على الحاضرين، زغردت زوجة الأب لمشهد موت السجين وهو يكبر وهتفت عاليا، مباركة شجاعته والشرف الذي نالها منه. إنّه الشهيد البطل «محمد الدغباي» أحد زعماء المقاومة الباسلة التي أقضت مضجع الاستعمار الفرنسي في تونس والاستعمار الإيطالي في ليبيا.

هو محمد بن صالح الزغباني الخريجي من بني يزيد، أمّا الدغباي فهي كنية خاصة به لا بأسرته. ولد الثائر التونسي الشهير وبطل الجنوب في العام 1302 هجريا (1885 ميلاديا) بوادي الزيتون الواقع على مسافة 30 كم من بلدة الحامة من ولاية قابس. نشأ «الدغباي» في وسط بدوي فتمرس بمصاعب الحياة. وتعود على احتمال المكاره وما تقتضيه البداوة من شظف عيش وتجلّد واحتمال للمكاره، وعُرف منذ صغره بكرهه وحقده على المستعمر شأنه شأن الكثيرين من أبناء تونس، فرفض الخنوع والخضوع للسياسة الاستعمارية الفرنسية. ولما بلغ سنّ الثانية والعشرين تمّ تجنيده (1907)، فلقى بالجندية الاستعمارية ثلاث سنوات عاد إثرها الى موطنه حيث تزوّج ثم أجبرته الحاجة والحرمان على العودة بعد ثلاثة أعوام إلى ثكنات الجيش للعمل كمتطوّع. لم يكن الدغباي مرتاح البال وهو يحمل بندقيته ليدافع عن العلم الفرنسي خاصة مع وصول أبناء عن نضالات الثوار الليبيين ومواقفهم البطولية في وجه المستعمر الإيطالي. أبناء أثارت في الدغباي الحمية وأشعرته بالنخوة وأججت فيه مشاعر العداوة للمستعمر. فقام بالفرار في سبتمبر 1915 إلى ليبيا صحبة خمسة من رفاقه، مستغلا تواجد ضمن الجيش الفرنسي قرب الحدود التونسية

اللبيّة ليلتحق بصفوف المقاومة بقيادة البطل اللبي خليفة النالوتي ويقاقل إلى جانبهُ في وقائع ضدّ الطليان حيناً وضدّ الفرنسيين حيناً آخر. وعلى إثر دخول الثوار اللبيين مرحلة الهدنة مع الاستعمار الايطالي سنة 1919، قرّر الدغباجي العودة إلى موطنه بمنطقة بني زيد ليواصل كفاحه ضدّ المستعمر الفرنسي ويرسم ملحمة تاريخية لبطل فذّ أقلق المستعمر وكبّده خسائر كبيرة في الأرواح والعتاد لا تحصى ولا تعدّ.

لم يكن الدغباجي مخطّطاً سياسياً ولا منظرًا أو مستهدياً بنظريّة ثوريّة، يحسب للمعارك كلّ حسابها. كان ثائراً ومثالا للفدائيّ الدائد عن العزّة والكرامة. خاض خلال الفترة ما بين 1919 و1924 معارك عديدة في الجنوب التّونسي تحدّى فيها قوّة الاستعمار أهمّها معركة «خنقة عيشة»، و«المحفورة»، وواقعة «المغذية» من ولاية صفاقس، وواقعة «الجلبانية».

كان يعبّي رفاقه في الجهاد بروح المقاومة وحبّ الوطن ببعده المغاربي الكبير، ولعلّ ما جاء في رسالته لأحد العملاء الذي أراد استدراجه وتسليمه للمستعمر لدليل قاطع عن هذا الإيمان القويّ حيث جاء فيها: «أنتم تطلبون منّا الرّجوع إلى ديارنا لكنّ ألسنا في ديارنا؟ إنّه لم يطرّدنا منها أحد، فحركتنا تمتدّ من فاس إلى مصراتة وليس هناك أحد يستطيع إيقافنا.. ونقسم على أنّنا لو لم نكن ننتظر ساعة الخلاص لأحرقنا كلّ شيء، والسّلام من كلّ جنود الجهاد».

تمت محاكمة الدغباجي غيابياً في 18 شعبان من عام 1339 هـ الموافق ليوم 27 أفريل 1921م وقُضي بإعدامه مع جمع من رفاقه، الذين التحقوا بالثّراب اللبي، ولكنّ الطليان لم يتأخّروا في القبض عليهم وتسليمهم لسلطات الاستعمار الفرنسي.

هذا هو محمد الدغباجي أحد أبرز المناضلين وشهيد الحركة الوطنيّة التّونسيّة إبّان الاستعمار الفرنسي، جسّد وحدة المغرب العربي من خلال مقاومته للمستعمر في تونس وليبيا ورفض الاستسلام للعدوّ حتّى وافاه أجله، ليغادر وطنه شهيدا من أجل الحرية والانعتاق. ورغم سنوات نضاله التي بلغت 11 سنة كاملة كان يقاوم فيها المستعمر بشراسة لا مثيل لها ورغم بطولاته، فقد تعمّد النّظام «البورقيبي» ومن بعده «النّومبري» تغييب هذا البطل عن تاريخ الحركة الوطنيّة وتشويه تاريخه النّضالي، لكنّ الضّمير الشّعبي بقي يتذكّر الدغباجي ويتداول بطولاته مشافهة وعبر الشّعور الشّعبي، خاصّة من خلال أغنية «الخمسة اللّي لحقوا بالجرّة وملك الموت يراجي، لحقوا مولى العركة المرّة المشهور الدغباجي»...

رحل الإستعمار وبقي الدغباجي شامخا في ذاكرة التّونسيين رمزا للشّجاعة والفداء وملهما للأجيال التي ستبني الوطن اعترافا له ولأمثاله بالجميل واحتراما للمناضلين والمجاهدين الذين لم يبخلوا بدمائهم من أجل تونس.



مارسيل خليفة



## طال السهاد

مَرَّ القطارُ سريعاً،  
كُنْتُ أنتظرُ  
وانصرفتُ المسافرونَ إلى أَيامِهِمْ ...  
وأنا ما زلتُ أنتظرُ  
تبكي الكمنجاتُ عن بُعدٍ، فتحملني  
سحابةٌ من نواحيها وتنكسرُ  
كان الحنينُ إلى أشياء غامضةٍ  
يُنْأى ويَدْنُو،  
فلا النسيانُ يُقْصِيني،  
ولا التذكُّرُ يدنيني ...  
من امرأةٍ إن مَسَّها قمرٌ  
صاحتُ: أنا القَمَرُ ... القَمَرُ ... القَمَرُ  
مَرَّ القطارُ سريعاً،  
لم يكن زَمَني  
على الرصيفِ معي، فالساعةُ اختلفتُ  
ما الساعةُ الآن؟ ما اليومُ الذي حَدَثَتْ

فيه القطيعةُ بين الأمس والغدِ  
لَمَّا هاجر العَجْرُ؟  
هنا وُلدتُ ولم أُولدُ  
سيُكْمَلُ ميلادي الحَرُونُ إذاً  
هذا القطارُ... ويمشي حوِلي الشَجَرُ  
هنا وُجدتُ ولم أُوجدُ  
ساعتُرُ في هذا القطارِ  
على نفسي التي امتلأتُ  
بضفَّتَيْنِ لنهرٍ ماتَ بينهما  
كما يموتُ الفتى... «ليت الفتى حَجَرَ ...»  
مَرَّ القطارُ سريعاً  
مَرَّ بي، وأنا مثل المحطَّة، لا أدري  
أودَّع أم أستقبلُ الناسَ:  
أهلاً، فوق أرصفتي  
مقهى، مكاتبُ، وردُ  
هاتفُ، صُحفُ وسندويشاتُ،  
وموسيقى، وقافيةُ  
لشاعرٍ آخرٍ يأتي وينتظرُ  
مَرَّ القطارُ سريعاً  
مَرَّ بي، وأنا ما زلتُ أنتظرُ.



لسماع الأغنية على العنوان التالي:

<https://www.youtube.com/watch?v=kxLqGd9v3Is>



## كل واحد و « قضيتو » !!!





# الإصلاح



يتجدد الموعد معكم  
إن شاء الله مع عدد جديد  
وسلسلة جديدة  
أفريل 2022  
رمضان 1443



[www.alislahmag.com](http://www.alislahmag.com)



[alislah.mag@gmail.com](mailto:alislah.mag@gmail.com)



[facebook.com/Alislahmag](https://facebook.com/Alislahmag)



[twitter.com/alislah\\_mag](https://twitter.com/alislah_mag)